رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

العسكرية في القرآن الكريم

تأليف
مصطفى أحمد كمال

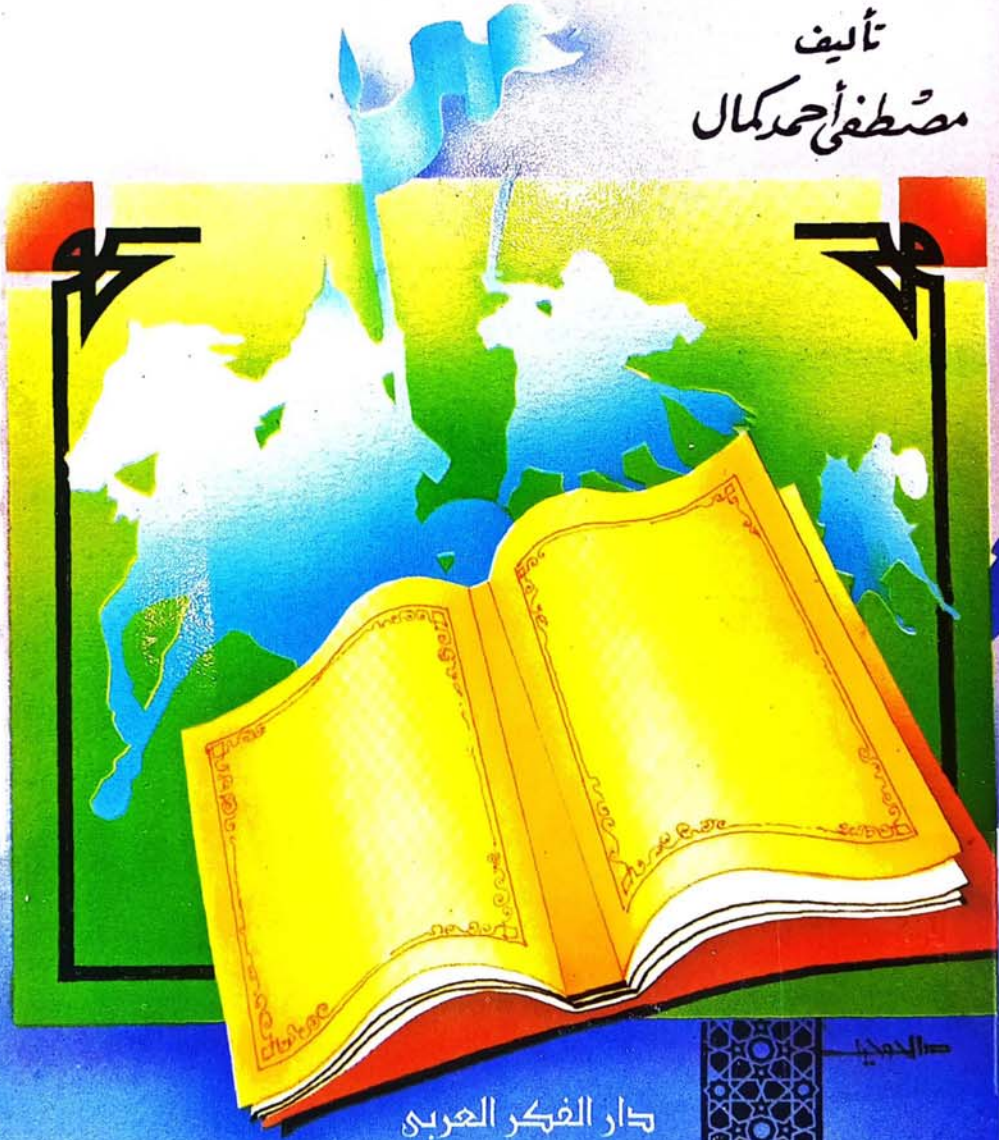

دار الفكر العربي

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

العسكرية فى القرآن الكريم

تأليف

مصطفى أحمد كمال

الطبعة الأولى

١٤١٨هـ / ١٩٩٨م

ملتزم الطبع والنشر

دار الفكر العربى

الإدارة : ٩٤ شارع عباس العقاد ـ مدينة نصر ـ القاهرة

ت : ٢٧٥٢٩٨٤، فاكس: ٢٧٥٢٧٣٥

٢٢٩,٤٣٥٥ مصطفى أحمد كمال.

م ص ع س العسكرية فى القرآن الكريم/ تأليف مصطفى أحمد كمال. ـ القاهرة : دار الفكر العربى، ١٩٩٨.

٩٩ ص: خ؛ ٢٤ سم .

ببليوجرافية: ص٩٧ .

تدمك : ٥ ـ ١٠٢٥ ـ ١٠ ـ ٩٧٧.

١ ـ القرآن الكريم والعلم. أ ـ العنوان.

أميرة للطباعة عابدين - ت : ٣٩١٥٨١٧

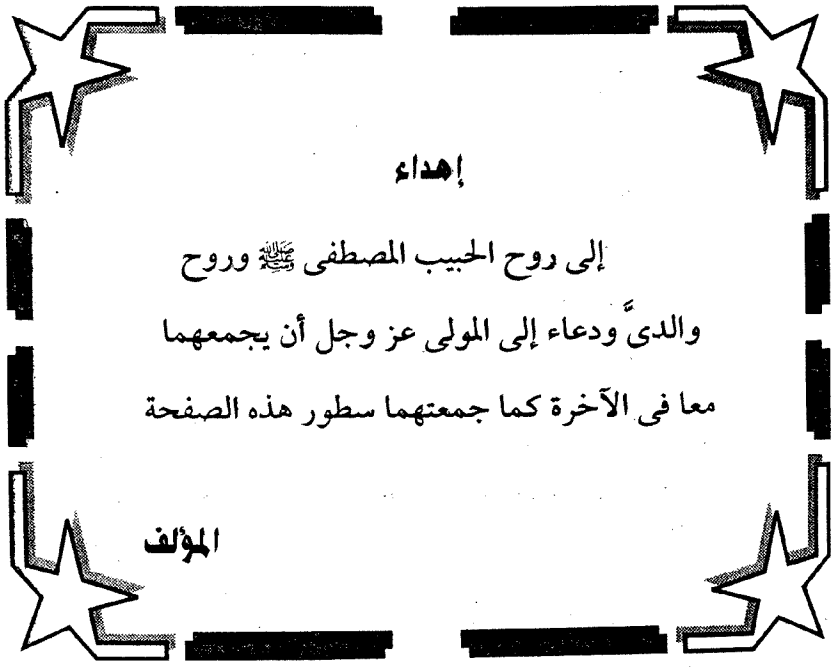

إهداء

إلى روح الحبيب المصطفى ﷺ وروح

والدىَّ ودعاء إلى المولى عز وجل أن يجمعهما

معا فى الآخرة كما جمعتهما سطور هذه الصفحة

المؤلف

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف خلق الله أجمعين . . . .

أما بعد

مما لا شك فيه أن الوقوف أمام التناول القرآنى لموضوع من الموضوعات هو متعة إيمانية ما بعدها متعة أخرى. والتدبر والتأمل فيما جاء به الكتاب الخالد هو اجتهاد مأجور مصحوب بالسكينة والطمأنينة، كما أن صدق الباحث والمجتهد ليس له عند الله إلا المزيد من الفيض الإلهى لكشف المراد بما جاء فى الآيات الكريمة.

وعندما فكرت فى الكتابة عن العسكرية فى القرآن الكريم كنت أعلم مدى جمال ومتعة الرحلة التى سوف أقوم بها ولكنى فى نفس الوقت لم أكن أعلم أن هناك صعوبات عديدة سوف تواجهنى لأول مرة رغم كتاباتى العديدة من قبل.

وأستسمحك عزيزى القارئ أن أستعرض معك بعض تلك الصعوبات؛ طمعا فى التماس العذر إذا وجدت أى قصور فى موضوعات الكتاب أو أى نقص أو ضعف فى محتوياته ومنها الآتى بعد:

١ ـ الصعوبة الأولى وتتمثل فى صعوبة الفصل بين الشق النظرى والشق التطبيقى لأى موضوع من الموضوعات. وفى هذا الكتاب الذى أتناول فيه العسكرية فى القرآن الكريم وهو شق نظرى بحت ظهرت الصعوبة فى البعد عن الشق التطبيقى المتمثل فى السنة المحمدية الشريفة.

وقد حاولت قدر جهدى أن ألتزم بموضوع الكتاب ولم ألجأ للشق التطبيقى إلا فى أقل القليل. وهذا القليل كان للإيضاح. وأحسب أنه كان إيضاحا مطلوبا.

٢ ـ الصعوبة الثانية وتتمثل فى قلة المراجع الموجودة والخاصة بموضوع الكتاب. فهناك كتب وكتابات كثيرة لأساتذه أجلاء عن موضوع العسكرية الإسلامية وهى كتب وكتابات تعتمد فى جوهرها العلمى على ما ورد فى السيرة المحمدية الطاهرة. وأحسب أن هذا الكتاب هو الأول من نوعه.

٣ ـ الصعوبة الثالثة وتتمثل فى أسلوب البحث والدراسة حيث هناك علاقة طردية بين حجم المراجع المتيسرة وبين ما توصل إليه الباحث من حقائق ترتدى الثوب العلمى. وفى مثل هذا الكتاب وعندما يكون المرجع الرئيسى الوحيد هو كتاب الله الخالد على مر الزمان فإن الاستنباط العلمى يكون اجتهادا يحتمل الخطأ والصواب. وتكون الحقائق آراء غير مؤكدة فليس للمخلوق أمام كلام الخالق إلا الرؤية الموقوتة بزمان. وأسال الله سبحانه وتعالى أن يكون التوفيق قد حالفنى فى ذلك.

٤ ـ الصعوبة الرابعة وتتمثل فى البحث عن جزئيات موضوع العسكرية داخل محيط كتاب الله الشامل الكامل وفى مراحل بحثى كنت أستحضر دائما قول الله عز وجل: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾ (١).

وأكتفى بهذا القدر من الصعوبات راجيا المولى عز وجل أن يتقبل جهدى هذا ابتغاء لمرضاته وأن يتقبل دعائى ﴿رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾(٢).

والله ولى التوفيق

---

(١) الكهف ١٠٩.

(٢) آل عمران ٨.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل الأول

ملامح التناول القرآنى

المبحث الأول: المدخل إلى التناول القرآنى

المبحث الثانى: فلسفة استخدام القوة فى القرآن الكريم

المبحث الثالث: خصائص العسكرية الإسلامية

المبحث الرابع: قيم وأخلاق القتال

المبحث الأول

المدخل إلى التناول القرآنى

أولا: عام

١ ـ يعتبر النشاط العسكرى من الأنشطة التى تناولها القرآن الكريم من خلال عدد كبير من الآيات الكريمة وإن اختلفت اتجاهات التناول طبقا لتعدد اتجاهات النشاط ذاته. ومرجع الاهتمام القرآنى هنا بهذا النشاط الإنسانى يعود لعدة أسباب من أهمها الآتى بعد:

أ ـ إن ميلاد الدعوة الإسلامية تم من خلال مجتمع يتصف بالغلظة والقسوة بحكم البيئة الصحراوية التى كان يحيا فيها هذا المجتمع، أضف إلى ذلك الرفض التام من سادة هذا المجتمع وأولى القوة فيه لتقبل فكرة التنازل عن آلهتهم وآلهة آبائهم.

ب ـ وحتى بعد هجرة المصطفى ﷺ إلى المدينة وشروعه فى بناء المجتمع الإسلامى الجديد فإن الأخطار والمخاوف كانت تحيط بهذا المجتمع وتهدد كيان الوليد الجديد، وحيث تعرض هذا المجتمع فى سنواته الأولى إلى غزوتين من كفار مكة هما غزوة أحد وغزوة الخندق. هذا على افتراض أن معركة بدر لم تكن غزوة من قبل كفار مكة كما يرى البعض ذلك[1].

جـ ـ إضافة إلى ما سبق فإن الوليد الجديد كان يعانى من أخطار داخلية تمثلت فى القبائل غير المسلمة التى كانت تسكن المدينة، وقد بذلت هذه القبائل وخصوصا اليهودية منها جهدا كبيرا لتمزيق وحدة هذا المجتمع من خلال الدسيسة والوقيعة بين قبائل الأوس والخزرج، بل وصل الأمر إلى العمل على القضاء كليا على هذا المجتمع من خلال مساندة الجانب المشرك فى معركة الخندق.

د ـ إنه فى وسط هذا الجو الرافض للدعوة الإسلامية داخليا وخارجيا ظهرت أهمية الأداة العسكرية كضرورة حتمية لتوفير الحماية المناسبة للمكلفين بعرض الدعوة الخاتمة على جميع أنحاء المعمورة.

هـ ـ إن التناول القرآنى للعسكرية الإسلامية كان ضرورة هامة لتحديد شكل

---

(١) يرى البعض أن مبادرة الجانب المسلم فى الاستيلاء على قافلة أبى سفيان العائدة من الشام هى السبب الرئيسى فى وقوع معركة بدر.

العلاقة بين إجراءات عرض ونشر الدعوة وبين إجراءات حماية وتوفير أمن القائمين على عرضها.

و ـ إن النشاط العسكرى الإنسانى هو النشاط الأكثر حاجة ضمن باقى الأنشطة الإنسانية إلى التحديد الواضح والتهذيب حتى لا تتحول المعانى السامية فيه إلى الضد ويتحول النصر من خلاله إلى غرور وصلف، والقوة إلى عدوان وافتراء، وكلها أمور حرص الدين الحنيف على تناولها بدقة حتى لا يختلط الصالح بالطالح.

٢ ـ وإذا انتقلنا إلى اتجاهات التناول القرآنى للعسكرية الإسلامية لوجدنا أن هذا التناول ينحصر فى عدة اتجاهات يمكن إيضاحها فى الآتى بعد:

أ ـ الاتجاه الأول: ويشمل كل ما يتعلق بالعقيدة القتالية الإسلامية.

ب ـ الاتجاه الثانى: ويشمل كل ما يتعلق بثوابت القتال والنشاط العسكرى.

جـ ـ الاتجاه الثالث: ويشمل كل ما يتعلق بالمعارك العسكرية الإسلامية التى نفذت فى فترة نزول القرآن الكريم على المصطفى ﷺ.

ثانيا ـ الاتجاه الأول: العقيدة القتالية الإسلامية:

١ ـ فى هذا الاتجاه نجد أن العقيدة القتالية الإسلامية فى مفهوم سهل ومبسط عبارة عن رؤية إيمانية من خلال منظور إنسانى لكافة أنشطة القتال والنشاط العسكرى الإنسانى. ومن هنا تنبع حتمية تناول القرآن الكريم لهذا الموضوع، وحتى تكون العقيدة القتالية الإسلامية مستمدة تماما من المصدر التشريعى الأول للديانة الإسلامية. والتناول القرآنى هنا تم من خلال موضوعية نادرة، إذ يقول المولى عز وجل فى كتابه الكريم ﴿**كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾**﴾[1]. وتتمثل الموضوعية هنا فى الأسلوب القرآنى المستخدم فى زرع العقيدة فى قلب وعقل المسلم، وحيث لجأ الكتاب الكريم إلى كل من الأسلوبين الإرغامى والإقناعى معا، فالأسلوب الإرغامى يتمثل فى قوله تعالى (كتب عليكم القتال وهو كره لكم) والأسلوب الإقناعى يتمثل فى قوله تعالى (وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم) حيث توضح الآية هنا أن هذا النشاط الإنسانى غير المستحب قد يكون فيه الخير إن لم يكن كله خير. ثم يعاود القرآن الكريم تناوله لهذا الموضوع من خلال توازن دقيق بعيدا عن أى شطط أو تطرف. فنرى تعظيم وتمجيد للنشاط العسكرى الإسلامى يرفعه إلى مرتبة الجهاد فى سبيل الله فى قوله المولى عز وجل ﴿**إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ**

(١) البقرة ٢١٦.

وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ﴾ (١) وفى نفس الوقت نجد تحجيما وقيودا لهذا النشاط بهدف الحد من إساءة استخدام هذا النشاط كما هو واضح فى قول المولى عز وجل ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ ﴾ (٢).

٢ ـ وخلال استعراضنا لصفحات هذا الكتاب فسوف نتناول موضوعين مرتبطين بهذا المفهوم: وهما خصائص العسكرية الإسلامية وفلسفة استخدام القوة فى القرآن.

ثالثا ـ الاتجاه الثانى: وهو الاتجاه الذى يتعلق بثوابت النشاط العسكرى، وفى هذا الاتجاه من المهم أن نقف أمام الآتى:

١ ـ إن المقصود بثوابت النشاط العسكرى هنا هو المبادئ والأسس التى يقوم عليها العلم الأكاديمى والمهارات التطبيقية. وهذه الثوابت هى المقياس والمعيار الدقيق الذى يمر من خلاله أى إضافات جديدة للعلم يتم اكتسابها أو تظهر أهميتها أثناء التمرينات أو التدريبات أو المعارك التى تقع.

٢ ـ ويظهر الإعجاز القرانى بصورة جلية وواضحة عند تناول هذا الاتجاه وحيث يتمثل هذا الإعجاز فى تناول آيات ذات ألفاظ قليلة ومعدودة لمعانى ومفاهيم عسكرية تشكل موضوعات دراسية تحتاج فى عصرنا الحاضر إلى أيام وأسابيع لاستيعابها. بل ويصل حجم الإعجاز القرآنى إلى إمكانية استخراج أكثر من معنى من خلال التركيبة اللفظية للآيات، وكمثال إيضاحى لما أقصده أمامنا قول المولى عز وجل: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ ﴾ (٣) فهذه الآيات التى تشترك مع بعضها البعض فى قلة الألفاظ المكونة لها يمكن أن نستخرج منها شكل ومراحل المعركة الهجومية، إضافة إلى العديد من ثوابت العمل العسكرى، مثل مبادئ الحرب وأسس المعارك المختلفة التى يقوم عليها العمل العسكرى، وسوف يظهر ذلك بوضوح من خلال تناولنا التفصيلى لموضوعات هذا الاتجاه.

رابعا ـ الاتجاه الثالث: وهو المتعلق بالمعارك التى تمت فى عهد المصطفى ﷺ وعلى الرغم من أن الآيات الكريمة التى تحدثت فى هذا الاتجاه لا تعتبر كثيرة إلا أن تناولها لمفهوم هذا الاتجاه قد أعطى الثبات لرؤية الشكل ومعانى الدروس المستفادة من تلك المعارك.

والملاحظ فى هذا الاتجاه أن الدروس المستفاده من معارك المصطفى ﷺ قد

(١) التوبة ١١١.
(٢) البقرة ١٩٠.
(٣) العاديات ١، ٢، ٣.

أضافت ثوابت جديدة للعلم العسكرى لم تكن معروفة من قبل. وكمثال إيضاحى هنا لهذا المفهوم فإننا نجد أن معركة مثل معركة بدر الكبرى أو الأحزاب قد وضعت كل واحدة منهما حسابات جديدة للمعركة وأصبحت الحسابات الدنيوية المتعلقة بالتعداد والتسليح والمقارنات جزء من حسابات أخرى وضعت فى الاعتبار قوة وصلابة العقيدة الدينية ومعانى ومفاهيم الجهاد فى سبيل الله، ووضع وتسخير النشاط العسكرى من أجل أهداف عليا عظيمة، وقيم ومثل شرعها الخالق سبحانه وتعالى للمخلوق الذى يبغى ربح الدنيا والآخرة.

خامسا تلك هى الأطر التى تم تناولها فى هذا الكتاب الذى بين يديك عزيزى القارئ، ومع صفحاته سوف ننتقل بين تلك الأطر للوقوف على كيفية تناول القرآن الكريم للنشاط العسكرى الإسلامى. وندعو الله عز وجل أن يكون التوفيق طريقنا والسداد صراطنا وقبول المقصد رضاء من عند الله سبحانه وتعالى إنه نعم المولى ونعم النصير.

المبحث الثانى

فلسفة استخدام القوة فى القرآن الكريم

أولا : عام

١ ـ إذا كانت أدوات الصراع الإنسانى تصب دائما فى إطار واحد يعرف بما اصطلح عليه فى عالمنا المعاصر اليوم بالإستراتيجية. فإن كل أداة من هذه الأدوات يكون لها الإطار أو الفلسفة التى تعمل من خلالها والتى تسعى دائما إلى تحقيق الأهداف المطلوبة داخل ذلك الإطار أو تلك الفلسفة، ومن المهم بالطبع أن تتفق هذه الفلسفة مع الفلسفة الإستراتيجية العليا. ولمزيد من الإيضاح يمكننا القول أن أدوات الصراع الإنسانى تشمل الأداة السياسية والأداة الاقتصادية والأداة العسكرية والأداة الثقافية..... إلخ. وكل أداة من تلك الأدوات تعمل فى إطار فكر وفلسفة خاصة بها ولكنها فى نفس الوقت تتفق فى كونها تنبع من فكر إستراتيجى واحد يحقق التنسيق بينهم والتكامل والشمول الذى يؤدى إلى أفضل أداء.

إذن فكر وفلسفة أى أداة من أدوات الصراع يمثل الوسيلة التى تعمل من خلالها الأداة لكى تحقق هدفا معينا محددا لها.

فعلى سبيل المثال عندما يكون فكر وفلسفة الأداة العسكرية قائما على نظرية الحرب الخاطفة فإن الإعداد والتدريب للقوة العسكرية يتم بناء على متطلبات تلك الحرب حتى يمكن من خلالها تحقيق النصر فى المعركة العسكرية. وأيضا عندما يكون فكر وفلسفة الأداة الاقتصادية قائما على نظرية السوق أو الاقتصاد الحر فإن كافة الإجراءات الاقتصادية لابد أن تتخذ لصالح هذا الاتجاه.

٢ ـ وعندما نشأ المجتمع الإسلامى الوليد فى المدينة المنورة مع هجرة المصطفى ﷺ نشأ معه بالتالى أدوات ومستويات المجتمع التى هى نفسها أدوات ومستويات أى صراع إنسانى منذ خلق الله سبحانه وتعالى الأرض ومن عليها وحتى يومنا هذا.

٣ ـ والقرآن الكريم الذى يمثل دستور الأمة الإسلامية فى كل زمان وكل مكان تناول فكر وفلسفة الإستراتيجية العليا للمجتمع الإسلامى، وأيضا فكر وفلسفة جميع أدوات الصراع المستخدمة من قبل هذا المجتمع ضد قوى الكفر والشرك. وفى تناولنا هذا فإن الأمر هنا سوف يقتصر على التناول القرآنى للأداة العسكرية التى هى موضوع هذا الكتاب.

ثانيا ـ التناول القرآنى لفلسفة استخدام القوة العسكرية:

يقول عز من قائل ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾﴾[1] ففى هذه الآية الكريمة مجموعة هامة من النقاط العسكرية مثل شكل وتكوين القوة العسكرية على سبيل المثال..... وهى نقاط سوف نتجاوزها حيث لا مجال لبحثها فى هذا الفصل، وإنما سوف نقف أمام النقطة التى تهمنا هنا وهى الغرض من استخدام القوة العسكرية.

فكما هو واضح فى الآية الكريمة أن الغرض أو الهدف من القوة العسكرية هو زرع الخوف والرهبة فى قلوب الأعداء، وبالتالى إجبارهم على عدم التفكير فى استخدام الأداة العسكرية فى الصراع بينهم وبين المسلمين. وهنا لابد أن نقف أمام هذا المفهوم بالتأمل والتدبر والدراسة من خلال النقاط الآتية:

١ ـ إن الغرض من إعداد القوة كما جاء فى التناول القرآنى لهذا الموضوع هو جوهر النظرية التى عرفت فى عصرنا الحاضر بنظرية الردع النووى، وهى النظرية التى عرفها العالم فى منتصف القرن العشرين وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية وظهور أسلحة التدمير الشامل والتى تختلف عن الأسلحة التقليدية بقدرتها التدميرية الهائلة. وقد اعتبر الخبراء العسكريون أن السباق بين الدول الكبرى على امتلاك الأسلحة الذرية والنووية هو الضمان الوحيد لعدم نشوب حرب عالمية ثالثة تستخدم فيها تلك الأسلحة. وعلى أساس أن البادئ بتوجيه الضربة الأولى سوف يعانى من رد الفعل فى الضربة الثانية.... وهكذا، إذن فإعداد القوة التدميرية هنا من قبل كل طرف إنما هو لإرهاب الطرف الآخر ومنعه من استخدام هذه القوة.

٢ ـ ولن أقف فى معرض التأمل والدراسة أمام السبق القرآنى لهذه النظرية فهو سبق منطقى وطبيعى، وصدق المولى عز وجل فى قوله: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾[2] ولكن أقف هنا أمام حجم الشمولية للفلسفة التى توصل إليها الفكر الإنسانى والتى جاء بها القرآن الكريم منذ خمسة عشر قرنا، فالفكر الإنسانى لم يتوصل إلى نظرية الردع النووى إلا عندما أصبحت البشرية كلها مهددة بالفناء وأصبح صاحب قرار استخدامها مهدد مثله مثل أى فرد فى دولته، أما الفلسفة القرآنية فقد جاءت شاملة كاملة تنادى بالردع والرهبة من خلال جميع أنواع الأسلحة التى تستخدمها الأداة العسكرية فى صراعها مع الغير. وفى هذا اتفاق كامل مع جوهر الدين الإسلامى الذى يستخدم الأداة

---

(١) الأنفال: ٦٠.

(٢) يوسف: ٧٦.

العسكرية كأداة دفاعية لرد المعتدين أو لقتال من يعترض نشر الدعوة وعرضها على الغير. وصدق المولى عز وجل إذ يقول فى محكم تنزيله: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾﴾[1] وقوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾[2].

٣ ـ ولعل الفلسفة القرآنية فى استخدام القوة العسكرية هى الأساس فى تحديد شكل العلاقة بين الأداة العسكرية والدعوة الإسلامية. فعندما تعتمد إستراتيجية ما على نظرية الردع فمعنى ذلك أن هذه الإستراتيجية تسعى من خلال إعداد القوة العسكرية إلى منع نشوب الحرب أو الصراع العسكرى، وبالتالى فإن الفلسفة القرآنية التى تنادى بإعداد القوة من أجل إرهاب الأعداء إنما تتخذ من التفوق العسكرى وسيلة لمنع الغير من البدء فى استخدام القوة العسكرية وخوفهم من النتائج التى يمكن أن تترتب على البدء باستخدام الأداة العسكرية.

مما سبق يمكننا القول بأن فلسفة استخدام الأداة العسكرية فى المجتمع الإسلامى الذى يحمل أمانة نشر الدعوة الإسلامية قد أوضحت تماما شكل العلاقة بين الأداة والدعوة، فالأداة هنا فقط تستخدم من قبل المجتمع الإسلامى ضد من لم يرتدع فاعتدى أو ضد من لم يرتدع فاعترض إجراءات نشر الدعوة الخاتمة.

ثالثا ـ الفلسفة القرآنية تحدد من هم الأعداء:

لبناء إستراتيجية عسكرية سليمة أو فكر عسكرى معين هناك عدد من العوامل الهامة التى تقوم عليها تلك الإستراتيجية منها على سبيل المثال الإمكانيات المتيسرة، والعدو الموجود، طبيعة وشكل مسرح العلميات ..... إلخ. ويمثل العدو الذى سيتم مقابلته عاملا هاما للغاية فى بناء أى استراتيجية عسكرية. ومن هنا كان النص القرآنى دقيقا وواضحا عندما تحدث عن هذه النقطة. مصداقا لقول المولى عز وجل: ﴿تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾[3] وهذا التناول القرآنى لتحديد شكل العدو يتفق تماما مع نظرية الردع العسكرى التى تقوم عليها الفلسفة القرآنية فى استخدام الأداة العسكرية ويتضح ذلك من خلال الآتى بعد:

١ ـ إن إعداد القوة العسكرية التى أمرنا بها المولى عز وجل ومهما كان هذا

---

(١) البقرة: ٢٥٦.
(٢) النحل: ١٢٥.
(٣) الأنفال: ٦٠.

الإعداد فإنه لن يؤتى ثماره مادام أن العدو غير مشترك بين الله سبحانه وتعالى وبيننا كمسلمين. والطريق الوحيد حتى يكون العدو قاسما مشتركا عند الله عز وجل وعندنا هو أن نكون نحن المسلمين من أنصار الطريق المستقيم الذى حدده لنا المولى عز وجل فى كتابه الكريم وفى سنة أشرف الخلق أجمعين.

٢ ـ وكما هو واضح من النص القرآنى الكريم أن هناك عدوا معلوما وعدوا آخر يعلمه المولى عز وجل. ومعنى ذلك أن القوة التى يتم إعدادها لن ترهب وتردع عدونا وعدو الله فقط ولكن سوف تردع آخرين لا يعلمهم إلا الله، وأمام هذه النقطة الهامة لابد أن نقف لمزيد من التأمل والدراسة، وحيث نجد هنا أن النص القرآنى الكريم لم يقتصر فقط على تحديد النظرية التى تقوم عليها فلسفة استخدام الأداة العسكرية فى المجتمع الإسلامى وإنما تعدى ذلك فى إطار شمولية واتساع إيضاحى رائع ليشمل العوامل التى تقوم عليها النظرية التى يجب العمل فى إطارها. وإذا كان علم الله الواسع قد شمل كل شىء فإن ذلك لا يتعارض مع جهود المسلم للحصول على المزيد من المعرفة والعلم، مصداقا لقول الله تعالى: ﴿عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾[1]. من هنا يمكننا القول أن القوة التى أمرنا الله سبحانه وتعالى فى كتابه الكريم بإعدادها لكى ترهب أعداءه وأعداءنا وآخرين لانعلمهم تتطلب لمزيد من حسن التقدير وضمان حق التنفيذ القتالى أن نحاول تحديد الأعداء الآخرين غير المباشرين والذى لفت القرآن الكريم نظرنا إليهم.

٣ ـ بناء على ما جاء فى البند أعلاه فإن تصور موقف العدو الذى تقوم عليه فلسفة وإستراتيجية استخدام القوة العسكرية يتطلب منا تحليلا دقيقا وسليما لكافة العناصر التى يمكن أن تشكل عدائيات للمجتمع الإسلامى، وبقدر ما يتصف هذا التحليل بالدقة بقدر ما تكون فلسفة استخدام الأداة العسكرية سليمة وصحيحة ومناسبة حيث إن التناسب هنا طردى بينهما.

والأمر هنا يتطلب أن يكون التحليل فى إطار أكثر من اتجاه تطبيقا لما جاء به القرآن الكريم ويمكن أن نستعرض بعض هذه الاتجاهات من خلال النقاط الآتية

أ ـ الاتجاه الأول

وهو اتجاه خاص بالعدو المباشر أو العدو المعلوم لنا، وهذا العدو هو الطرف الرئيسى الآخر معنا فى حالة نشوب الصراع العسكرى، وأيضا هو الطرف الذى يتم إعداد القوة العسكرية من أجله لإرهابه وردعه وزرع الخوف فى نفسه من الآثار التى يمكن أن تترتب على قيامه ببدء الصراع أو المعركة العسكرية. فى هذا الاتجاه غالبا

---

(١) العلق: ٥.

ما تكون المعلومات المتيسرة عن هذا العدو بحجم مناسب، كما أن كافة عناصره من المفترض أن تكون تحت نظر عناصر استطلاعنا ومخابراتنا.

ب ـ الاتجاه الثانى

وهو اتجاه خاص بالعدو غير المباشر أو العدو غير المعلوم، وهذا العدو الذى وجهت نظرنا إليه الآية الكريمة غالبا ما يكون أشد رهبة وفزعا من العدو المعلوم، وفى نفس الوقت فهو أشد خطرا علينا أيضا من العدو المعلوم، وبالطبع وبحكم أنه عدو غير معلوم فإن حجم المعلومات عنه تكون قليلة وعناصر أداته مجهولة وغير مسيطر عليها تحت نظر عناصرنا الاستطلاعية بدرجة كافية.

٤ ـ والآية الكريمة فى إطار هذا السياق تدعونا إلى بذل الجهد والفكر فى الوصول إلى جميع أنواع الأعداء. وإذا كان المولى عز وجل يعلم ما هو مجهول لنا فإن ذلك يدعونا إلى محاولة الوصول للمجهول واكتشاف النوايا قبل الصور، وخصوصا أن الاستخدام الأمثل للأداة العسكرية يتطلب دائما وباستمرار تحديدا دقيقا وواضحا لشكل وحجم العدو الذى تم إعداد القوة العسكرية لردعه وإرهابه.

رابعا ـ الفلسفة القرآنية تحدد مصادر إعداد القوة:

تعتبر المصادر المتيسرة لإعداد القوة أحد أهم العوامل المؤثرة فى نظرية فلسفة استخدام القوة العسكرية، وقد سبق وتناولنا عاملا من العوامل وهو العدو. والعامل الثانى الهام الذى تناولته الآية الكريمة هو الإمكانيات المتيسرة لبناء القوة العسكرية وخصوصا فى قوله تعالى: ﴿**وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ**﴾[1]. ومن الواضح هنا أن هناك ارتباطا وثيقا بين أمر الإعداد الوارد فى أول الآية وأسلوب الترغيب فى الإنفاق الذى جاء فى آخر الآية. وهذا الارتباط يمكن أن نقف أمامه من خلال الآتى بعد:

١ ـ إن إعداد القوة العسكرية يتطلب نفقات باهظة للغاية، لذلك نجد أن حجم الإنفاق العسكرى لأى دولة يلعب دورا مؤثرا فى الشكل العام لميزانية الدولة، وعند نشوب الحرب من الضروى أن يتحول اقتصاد الدولة إلى اقتصاد حرب، بمعنى تسخير كافة الإمكانيات لصالح الإنفاق الحربى، وخصوصا أن استعواض خسائر الحرب والمحافظة على كفاءة الأداة العسكرية تتطلب المزيد والمزيد من الإنفاق.

٢ ـ ومع تسليمنا التام بأن أقوى حافز لدى الإنسان هو العقيدة الدينية التى يمكن أن تلعب الدور الأول فى تغطية نفقات إعداد القوة العسكرية، وبمعنى أن يكون هذا

---

(١) الأنفال: ٦٠.

الإنفاق فى سبيل الله وابتغاء مرضاته. وإن هذا الإنفاق سوف يكون أجره عند الله. لذا ركزت الآية الكريمة على هذا المفهوم كأساس لتغطية نفقات الأعداد الباهظة.

٣ ـ ولأن الله سبحانه وتعالى بالمؤمنين رحيم لم يترك عملية الإنفاق مطلقة ولكن حدد لها حدودا معلومة تدخل فى نطاق الاستطاعة كما جاء فى أول الآية الكريمة (وأعدوا لهم ما استطعتم). وإذا ما تحقق هذا الشرط، أى أعددنا ما فى الاستطاعة فإن الفارق السلبى فى الإعداد سوف يستكمل بدعم السماء وبالنصر الذى وعد الله عباده المؤمنين مثلما حدث فى معركة بدر ومعركة الأحزاب.

خامسا ـ الفلسفة القرآنية فى استخدام الأداة العسكرية والعلم الحديث:

قبل الاسترسال فى هذه النقطة أحب أن أوضح أننى لست من أنصار المقارنة بين ما جاء به القرآن الكريم وبين ما وصل إليه العلم الحديث، فالقرآن الكريم نور الله فى الأرض حتى قيام الساعة، وكل ما جاء من عند الخالق فهو حق مصدق به، أما العلم البشرى فهو نتاج البحث والتجربة والدروس المستفادة وهذا النتاج قابل للتعديل طالما أن بحثا أو تجربة جديدة أثبتت ذلك. لذا فإن المقارنة غير واردة بين ما هو حق وصحيح وخالد وبين ما هو مشكوك فى صحته ويخضع للتصحيح وموقوت فى بعض الأحيان، لذلك فإن تناولى لهذه النقطة ليس من قبيل المقارنة وإنما هو استبيان لما وصل إليه الفكر البشرى فى هذا المجال، ويمكن إيضاح ذلك من خلال الآتى بعد:

١ ـ إن الفكر البشرى قد توصل لنظرية الردع النووى عندما وجد أن الطاقة التدميرية لأسلحة التدمير الشامل تهدد الكرة الأرضية بأكملها، وأن زرع الخوف والرهبة لدى كل طرف من أطراف النادى النووى هو السبيل الوحيد لضمان عدم استخدام هذا السلاح.

أما التناول القرآنى هنا فقد اتسم بالشمول حيث ينادى بإعداد القوة بجميع أشكالها سواء كانت تقليدية أو نووية من أجل زرع الخوف والرهبة فى قلب الأعداء وضمان عدم البدء باستخدام الأداة العسكرية فى أى صراع.

ويلاحظ هنا أن التناول القرآنى يحمل فى طياته دعوة ضمنية أى غير مباشرة للسلام، فالردع هنا يهدف أساسا إلى منع الحرب بعكس الفكر البشرى الذى توصل إلى نظرية الردع من أجل منع استخدام أسلحة معينة فقط وهى أسلحة التدمير الشامل.

٢ ـ إن التفكير البشرى اليوم وفى عالمنا المعاصر لجانب العدو عند بناء إستراتيجية استخدام الأداة العسكرية يتم من خلال عدة مراحل، حيث يتم التفكير فى المرحلة الأولى فى إطار ما يسمى بالعدو الفعلى، وهو العدو المعروف الذى سوف يتم تنفيذ المعركة الفعلية معه، وهذا العدو يأخذ الجهد الأكبر وخصوصا أثناء الإعداد للمعركة فى

نواحى تحليل النوايا والاحتمالات المختلفة التى قد يلجأ إليها أثناء المعركة، أما المرحلة الثانية فغالبا ما تتم فى إطار ما يسمى بالعدو المنتظر، وهذا العدو قد يكون جزءا من العدو الفعلى، وقد يكون عدوا آخر تتفق مواقفه السياسية والعسكرية والاقتصادية مع العدو الفعلى، وهذا العدو توجه إليه العناية خلال مراحل التحضير للمعركة ثم يأخذ الجهد الأكبر فى نواحى التحليل للاحتمالات المختلفة التى قد يتصرف من خلالها، وذلك عندما يقترب وقت تحوله من عدو منتظر إلى عدو فعلى، وهناك بعض المدارس العسكرية تلجأ إلى مرحلة ثالثة فى دراسة ما يسمى بالعدو المحتمل وهو عدو قد يكون جزءا من العدو المنتظر، وقد يكون منفصلا عنه تماما، وتمر مرحلة دراسته بنفس ما تم مع العدو الفعلى والعدو المنتظر.

وفى هذا فإن التناول القرآنى لهذه النقطة أيضا كان أكثر شمولا حيث حدد لنا العدو الفعلى، وهو عدو الله وعدوكم وحذرنا من وجود عدو أو أعداء آخرين لانعلمهم ولكن يعلمهم الله وحده سبحانه وتعالى، وعلينا نحن بذل الجهد والفكر وتحليل المواقف وصولا إلى العدو الخفى.

٣ ـ وفى مجال إعداد القوة العسكرية فإن المتبع فى عصرنا الحاضر يقوم على أساس أن المصدر الرئيسى لذلك الإعداد هو دخل الدولة من الضرائب التى تفرض على جميع العاملين فى الدولة كل طبقا لدخله ونشاطه وعمله الذى يمارسه. والخلاف هنا بين ما توصل إليه الفكر البشرى وبين التناول القرآنى لهذه النقطة ينحصر فى أن الفكر البشرى قد حرك فى الفرد الحافز الدنيوى المتمثل فى الدفاع عن أرضه ووطنه: فكان التساوى بين الأفراد فى حجم ما يدفع من ضرائب، أما التناول القرآنى فقد حرك الحافز والوازع الدينى وترك الإنفاق قدر الاستطاعة. ويمكن لمزيد من الإيضاح أن نستحضر هنا إعداد الجيش المسلم لمعركة تبوك حيث تكفل سيدنا عثمان بن عفان (رضى الله عنه) بأغلب نفقات الجيش حتى قال المصطفى ﷺ «اللهم ارض عن عثمان فإنى عنه راض».

سادسا ـ التطبيق النبوى للفلسفة القرآنية فى استخدام الأداة العسكرية:

قد يبدو من الوهلة الأولى أن تناول هذه النقطة يتعارض مع موضوع الكتاب، وقد أشرت إلى ذلك فى مقدمة الكتاب، وقد أوضحت أن الاستعانة بالتطبيق النبوى سوف يكون فى الضروريات، وعلى أساس أن التطبيق والتنفيذ الأمثل لما جاء بالقرآن الكريم تم على يد المصطفى ﷺ ويمكن لنا أن نستدل بأحد معارك الرسول الكريم ﷺ لكى نؤكد ما خرجنا به من استعراضنا السابق من أن الفلسفة القرآنية فى استخدام الأداة العسكرية تعتمد على أن القوة لردع الأعداء الذين يعترضون إجراءات نشر وعرض الدعوة المحمدية أو الذين يهددون المجتمع الإسلامى، ولنا فى معركة فتح مكة المثال والبيان.

ففى معركة فتح مكة قام الرسول ﷺ باستعراض لقوة الجيش المسلم أمام زعماء قريش الذين تم أسرهم وعلى رأسهم أبى سفيان، ويرى بعض المؤرخين هنا أن هذا الاستعراض لعب دورا هاما فى سرعة دخول أهل مكة للإسلام. وهذه الرؤية غير صحيحة على الإطلاق إذا ما تم النظر والدراسة إلى الحدث التاريخى ككل، فاستعراض القوة الذى أمر به الرسول ﷺ كان يهدف إلى زرع الخوف والرهبة وإجبار زعماء مكة وأهلها على عدم القتال (أى الردع) وذلك تجنبا لإراقة الدماء، ومما يؤكد ويؤيد هذا الرأى أن المصطفى ﷺ قام بعزل سعد بن عبادة عن قيادة كتيبة المهاجرين وعين ابنه مكانه عندما قال سعد (رضى الله عنه): (اليوم يوم الملحمة اليوم أذل لله قريشا) فيرد رسول الرحمة والتسامح (عليه الصلاة والسلام) بل اليوم أعز الله قريشا. وأيضا عندما أمر الرسول ﷺ خالد بن الوليد بإيقاف القتال الذى كان قد بدأه عند دخول مكة من المدخل الجنوبى.

ثم نصل بعد ذلك إلى ما فعله الرسول بأهل مكة بعد فتحها حيث قال لهم ﷺ: ماذا تظنون أنى فاعل بكم؟ قالوا: أخ كريم وابن أخ كريم. فقال المصطفى ﷺ: «اذهبوا فأنتم الطلقاء».

هذا التطبيق النبوى يوضح لنا أن الذى عجل بدخول أهل مكة للإسلام هو التسامح والرحمة، وأن الذى منعهم عن القتال هو ردع الجيش المسلم لهم. ومن هنا كانت معركة فتح مكة بيان تطبيقى وحقيقى لفلسفة استخدام الأداة العسكرية الإسلامية. كما أنها معركة نموذجية يتضح من خلالها شكل العلاقة بين الأداة العسكرية وبين إجراءات نشر الدعوة الخاتمة وعرضها على العالمين.

المبحث الثالث

خصائص العسكرية الإسلامية فى القرآن الكريم

أولا : عام

لا يختلف العلم الإنسانى من مكان لآخر إلا بحجم الإضافات التى تضاف إليه يوما بعد يوم. ومع تأكيد الناحية التطبيقية لسلامة وصحة هذه الإضافات تصبح هذه الإضافات امتدادا علميا جديدا لذات العلم الإنسانى نفسه، ويصبح هذا العلم بإضافاته ملكا لجميع البشر فيما عدا العلوم التى تتحكم فى الصراعات بينهم مثل العلوم العسكرية أو بعض الأسرار الصناعية أو الاقتصادية. . . . . إلخ.

وإذا اتفقنا على أنه ليس هناك اختلاف علمى بين مكان وآخر على سطح الكرة الأرضية. فإننا أيضا يجب أن نتفق على أن هناك اختلافا كبيرا فى النواحى التطبيقية أو الأساليب التى يطبق بها العلم الإنسانى. فنجد على سبيل المثال أن هناك مدرسة طبية أمريكية وأخرى إنجليزية وثالثة فرنسية على الرغم من أن الجميع يعمل فى إطار أكاديمى واحد، وشكل وطبيعة المدرسة التطبيقية يقوم أساسا على الأسس والقواعد التى تحكم الفكر التطبيقى وتحدد الأسبقيات وشكل الاحتمالات.

من هذه المقدمة الموضحة أعلاه، يمكننا القول أن المدرسة العسكرية الإسلامية الأولى كانت لها خصائص تطبيقية معينة اختلفت بها عن باقى المدارس المعاصرة فى زمانها أو حتى المدارس الحالية فى عصرنا الحاضر. وهذه الخصائص تنبع أساسا من كتاب الله الخالد، ويمكن لنا استعراض ذلك من خلال السياق التالى.

ثانيا ـ خصائص العسكرية الإسلامية فى القرآن الكريم:

١ ـ إن العسكرية الإسلامية هى العسكرية الوحيدة خلال التاريخ البشرى منذ خلق الله سبحانه وتعالى الأرض وحتى قيام الساعة التى حظيت بدعم من السماء خلال المعارك التى نفذتها أو شاركت فيها، وهذا الدعم تم من خلال عدة صور يمكن استعراضها كالآتى:

١ ـ الدعم المادى

وهذه الصورة من الدعم أو المساندة كانت تتم من قبل السماء من خلال جند الله سواء فى السماء أو فى الأرض، ويظهر ذلك بوضوح فى معركة بدر حيث يقول

المولى عز وجل: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾﴾[1] وقوله تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾﴾[2] وواضح من الآيتين الكريمتين أن الدعم المادى والمساندة للجيش المسلم كان من خلال جند السماء.

أما إذا انتقلنا إلى معركة أخرى مثل معركة الأحزاب فسوف نجد أن المساندة والدعم الإلهى للجيش المسلم تم من خلال جند الله فى الأرض، وصدق المولى عز وجل إذ يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾﴾[3].

ب ـ الدعم التعليمى

وهذا النوع من المساندة كان يهدف إلى سرعة استفادة الجيش المسلم من أخطائه التى يقع فيها خلال المعارك، وأبرز مثال أمامنا هو معركة أحد وهى المعركة الوحيدة التى خسرها الجيش المسلم فى عهد المصطفى ﷺ، ففى هذه المعركة وقع الجيش المسلم فى عدة أخطاء أبرزها كما نعلم ترك مجموعة الرماة للموقع الذى حدده لهم الرسول القائد ﷺ وتوالت الأخطاء بعد ذلك الأمر الذى ترتب عليه خسارة المعركة من قبل الجيش المسلم، وهنا نقف أمام سؤال هام للغاية. كيف تصرف المنتصر فى هذه المعركة؟ إن التصرف الطبيعى والمنطقى هنا يقول أن الطرف المنتصر وهم كفار مكة كان يجب أن يتجهوا صوب المدينة. وفى المدينة لن تكون هناك مقاومة تذكر، فالمجتمع الإسلامى أو الدولة الإسلامية على وجه التحديد كانت ومازالت فى مراحل النمو الأولى، والدخول للمدينة من قبل الجيش المشرك لم يكن له إلا معنى واحد هو نهاية وفناء الوليد الجديد فى المدينة. ولكن كيف يحدث ذلك؟ والمولى عز وجل أرسل الديانة الإسلامية لتكون خاتمة الديانات السماوية إلى الأرض. من هنا كان حقا على الله أن يختم على عقل المنتصر بغشاوة تقوده إلى العودة من حيث أتى، رافضًا أن يجنى ثمار نصره أو يأخذ ثمن تلك الثمار. والمحلل العسكرى المسلم حينما يتأمل نتائج معركة أحد يجد أن أبرز نقاط التحليل تؤدى إلى أن هذه المعركة كانت مسانده إلهية تعليمية للجيش المسلم قدمها المولى عز وجل. وحيث لا يوجد معنى آخر لتصرف الطرف المنتصر بهذا الغباء وهو الذى يضم بين قادته فطاحل من العسكريين، ويكفى أن نذكر هنا خالد بن الوليد على سبيل المثال وذلك قبل إسلامه.

---

(١) الأنفال : ٩.

(٢) الأنفال: ١٢.

(٣) الأحزاب : ٩.

جـ ـ الدعم المعنوى

وهذا الصورة من الدعم والمساندة تختلف تماما عن الصورتين السابقتين، فالدعم المادى والمساندة التعليمية كما هو واضح حدثا فى المراحل الأولى لنمو المجتمع الإسلامى، وفى المعارك الدفاعية التى خاضها الجيش المسلم واضطر إلى اتخاذ الدفاع فيها بحكم القلة العددية وأيضا بحكم قلة الخبرة القتالية.

فهل معنى ذلك أن الدعم والمساندة الإلهية قاصرة على فترة معينة أو أنها مساندة غير مستمرة؟ هنا فى هذه الصورة صورة الدعم المعنوى نجد الإجابة واضحة تماما فى أن هذه المساندة مساندة دائمة ومستمرة فى أى مكان ولكن بشروط معينة لابد وأن تتحقق حتى تكون المسانده الإلهية معنا وإلى جانبنا. ولنقف أمام الآيات الكريمة الآتية بالتأمل والتقدير:

(١) قول المولى عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾(١)

(٢) قول المولى عز وجل: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غَالِبَ﴾(٢)

(٣) قول المولى عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾﴾(٣)

(٤) قول المولى عز وجل: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾(٤)

٢ ـ إن القرآن الكريم حدد وربط مفهوم النشاط العسكرى الإسلامى كجزء من كل أكبر وهو مفهوم الجهاد مصداقا لقول المولى عز وجل: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾(٥) وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾﴾(٦) وهذا الربط لمفهوم القتال وصهره داخل مفهوم الجهاد يعتبر أحد إعجازات القرآن الكريم، وذلك للأسباب الآتية:

١ ـ أن النشاط العسكرى الإنسانى يتصف بالقوة والعنفوان وهما الطريق المؤدى إلى خروج الإنسان من فطرته التى فطره الله عليها إلى غياهب الكبر والتكبر والظلم.... إلخ. لذلك فالربط بين القتال كنشاط إنسانى وبين مفهوم الجهاد يحدد ويحصر هدف النشاط القتالى دائما فى ابتغاء مرضاة الله سبحانه وتعالى.

---

(١) الروم: ٤٧.
(٢) آل عمران: ١٦٠.
(٣) محمد: ٧.
(٤) الحج: ٤٠.
(٥) التوبة: ٤١.
(٦) التوبة: ٧٣.

ب ـ وحينما يصبح هذه النشاط القتالى هو ابتغاء مرضاة الله سبحانه وتعالى فإن الدعوة الإسلامية سوف تتحرك داخل إطار من الانسجام والتناسق حيث يقول المولى عز وجل: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾[1] فهل من المنطق أن تكون الدعوة قائمة على الحكمة والموعظة الحسنة والأداة العسكرية فى يد الدعاة تتصرف بصلف وكبرياء وغرور؟ لا أن قتال الجيش المسلم تحده أسس وأهداف عظيمة وسامية.

جـ ـ أن ارتباط النشاط العسكرى الإسلامى بمفهوم الجهاد فى سبيل الله قد زاده شرفا وتعظيما، وانظر إلى قول المولى عز وجل: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾[2] وما أعظم أن يكون العمل العسكرى الإنسانى فى سبيل الله فيقبل فينسب الله سبحانه وتعالى فعل العبد الصالح لذاته العليا، أوليس الفرد المقاتل هو الأداة التى نفذت رمى الله سبحانه وتعالى؟

٣ ـ أن الأداة العسكرية لها دور محدد فى حماية المكلفين بعرض الدعوة الإسلامية بعيدا عن أى ظلم أو اعتداء أو إكراه على اعتناق الإسلام. وصدق الله العظيم إذ يقول فى محكم تنزيله: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾[3] ويقول أيضا عز من قائل ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾﴾[4]. والمولى عز وجل عندما خص العسكرية الإسلامية بهذه الخاصية العظيمة إنما خصها مصداقا لقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾[5]. وهذا الخاصية العظيمة لعبت دورا كبيرا فى انتشار الإسلام واعتناق الكثير من البشر له. ففى مصر على سبيل المثال ساعد أقباط مصر القائد المسلم عمرو بن العاص على دخول مصر حيث كان الأقباط يتعرضون لظلم فظيع واضطهاد مذهبى من قبل الرومان المسيحيين، وهذا التصرف من أقباط مصر طبيعى ومنطقى لأنهم كانوا يأملون أن يجدوا الخلاص على يد عمرو بن العاص.

أما كيف اعتنق أقباط مصر الإسلام فهذا يرجع إلى أسلوب عمرو بن العاص وجنده فى عرض الدعوة الإسلامية قولا وفعلا حيث خلا هذا العرض من أى شبه إكراه أو إجبار أو ظلم أو ظغيان ويكفى أن نقف هنا أمام تصرف عمرو بن العاص إزاء بطريرك الأقباط البابا بنيامين الذى فر إلى الصحراء أمام اضطهاد الرومان وحيث أعاده

---

(١) النحل: ١٢٥.
(٢) الأنفال: ١٧.
(٣) البقرة: ٢٥٦.
(٤) البقرة: ١٩٠.
(٥) القصص: ٥٦.

عمرو بن العاص إلى كرسيه وقال قولته المشهورة: (بطريرك الأقباط فى أمن وأمان ويعود إلى كرسيه).

٤ ـ ثم نأتى إلى الخاصية الأخيرة التى خص بها القرآن الكريم العسكرية الإسلامية حيث أعطى لها شرف السبق فى وضع أسس ومبادئ العلم العسكرى الحديث. وقد تكون هذه الخاصية غريبة بعض الشىء عزيزى القارئ وخصوصا أن القرآن الكريم ليس بكتاب علمى أو أكاديمى. ولكن وجه الغرابة سوف ينمحى إذا اتفقنا على أن النتائج تتوقف على نوع وحجم الجهد المبذول، فإذا كانت النتائج إيجابية وكثيرة فمعنى ذلك أن الجهد المبذول لتحقيقها جهد صحيح وكبير. والعكس بالطبع إذا كانت النتائج سلبية وصغيرة. وهنا أقف أمام صورتين هما:

١ ـ الصورة الأولى

وتشتمل هذه الصورة على مساحة الدولة الإسلامية عند وفاة الرسول ﷺ. وتقول مفردات الصورة أن مساحة الدولة الإسلامية قد قارب المليون ميل مربع (مساحة شبه الجزيرة العربية حاليا) وعمر هذه الدولة بضع سنين أو قل عشر سنوات، معنى ذلك أن معدل التوسع اليومى للدعوة الإسلامية اقترب من ثلاثمائة ميل فى اليوم الواحد. وهذا التوسع لا يمكن أن يتم بهذا المعدل إلا إذا أسند على شيئين هامين هما:

(١) صدق وسلامة الدعوة والدعاة واستشعار المدعوين لنورانية الرسالة وأنها حق من عند الله، فكانت القناعه والاقتناع، وكلاهما يحرك العقيدة بين الناس مثلما تتحرك النار بين الهشيم.

(٢) سلامة وصحة الأداة العسكرية التى كانت تقوم بحماية الدعاة والتعامل مع من حاول اعتراض عرض الدعوة. والمقصود هنا بسلامة وصحة الأداة العسكرية هو العمل طبقا للمبادئ والأسس الصحيحة، وهو الدور الذى لعبه القرآن الكريم فكان للعسكرية الإسلامية سبق وضع مبادئ وأسس العلم العسكرى.

ب ـ الصورة الثانية

وتشتمل هذه الصورة على محتويات الصورة الأولى، أى مساحة الدولة الإسلامية، ولكن عند وفاة الفاروق عمر بن الخطاب (رضى الله عنه وأرضاه) والقصد هنا من تكرار الصورة هو الوقوف أمام المتغيرات بالرصد والتحليل، ففى الصورة الأولى قد يقول قائل أن المليون ميل مربع مساحة الدولة الإسلامية عند وفاة الرسول ﷺ عبارة عن صحراء شاسعة يسكنها أعداد قليلة من البدو الرحل الذين يفتقدون المهارات العسكرية والقتالية. وهنا نقول وماذا عن الصورة الثانية؟ حيث واجهت الدعوة الإسلامية والأداة العسكرية الإسلامية كثافة سكانية عالية لأعظم إمبراطوريتين فى العالم

وقتئذ وهما الإمبراطورية الفارسية والإمبراطورية الرومانية وبالتالى تعاملت الأداة العسكرية الإسلامية مع الجيوش الفارسية والرومانية وهى جيوش كانت على مستوى عال من التدريب القتالى.

إن هاتين الصورتين دلالة أكيدة على أن الأداة العسكرية الإسلامية كانت تعمل فى إطار صحيح وسليم من المبادئ والأسس العسكرية، وهى بذلك كان لها شرف السبق بوضع تلك الأسس والمبادئ[1].

ثالثا: وهكذا من خلال استعراضنا للخصائص التى تتميز بها العسكرية الإسلامية يمكننا القول أن تلك الخصائص استمدت من كتاب الله العزيز وهى تنحصر فى الآتى:

١ ـ أن العسكرية الإسلامية هى العسكرية الوحيدة على وجه الأرض التى حظيت وفازت بدعم السماء لها لأنها أداة للدعوة الخاتمة.

٢ ـ أن مفهوم النشاط العسكرى الإسلامى مفهوم جزئى من كل أكبر، هو مفهوم الجهاد، وهذا الربط بينهما كان السبب وراء ارتقاء العمل القتالى من غياهب القوة والعنفوان إلى سمو المقصد والهدف حيث القتال ابتغاء مرضاة وجه الله.

٣ ـ أن العسكرية الإسلامية تمارس تنفيذ مهامها المكلفة بها للحماية والتأمين لا للاعتداء أو التوسع على حساب الآمنين

٤ ـ أن العسكرية الإسلامية كان لها شرف السبق فى وضع أسس العلم العسكرى الحديث ونتائج الأداة العسكرية الإسلامية خير شاهد على ما نقول.

---

(١) يمكن الرجوع إلى كتاب إعداد الجيش فى عهد الرسول ﷺ للمؤلف، إصدار دار الفكر العربى.

المبحث الرابع
قيم واخلاق القتال

أولا : عام

لم يكتف القرآن الكريم بالربط بين النشاط العسكرى الإسلامى ومفهوم الجهاد فى سبيل الله لضمان مشروعية العمل القتالى وتأكيد تنفيذ إجراءاته فى إطار القيم والمبادئ للدين الخاتم، وإنما وضع القرآن الكريم مجموعة أخرى من المبادئ الأخلاقية التى يجب مراعاتها والالتزام بها أثناء القتال وكان ذلك ضرورة هامة للآتى:

١ ـ أن القرآن الكريم عندما ربط بين النشاط العسكرى الإسلامى ومفهوم الجهاد فى سبيل الله، وأيضا عندما وضع المبادئ الأخلاقية للقتال كان ينطلق من منطلق ان العقيدة لا تقوم أو تزرع على أساس القوة وحدها.

٢ ـ أن مفهوم الجهاد فى سبيل الله مفهوم كبير وواسع، والشق العسكرى يمثل جزئية صغيرة منه،الأمر الذى يمكن أن تتعدد معه وجهات النظر أو تختلف، ونظرا لما يتصف به النشاط العسكرى من عنفوان وقوة فكان لابد من توحيد المفاهيم والقيم والمبادئ الأخلاقية التى تحكم النشاط القتالى، ومن هنا كان الكتاب الكريم سباق فى وضع أسس حقوق الإنسان سواء فى زمن السلم أو زمن الحرب.

وعندما نقف بالتأمل أو الدراسة أمام المبادئ والقيم الأخلاقية التى وضعها القرآن الكريم عند ممارسة النشاط العسكرى الإسلامى فإن أول ما يلفت النظر هو الشمول والتكامل، بمعنى أن تلك القيم والمبادئ حافظت تماما على كرامة الإنسان حتى يمكننا القول بأنها جزء من التكريم القرآنى للإنسان مصداقا لقول المولى عز وجل: ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا** ﴿٧٠﴾﴾[1] وقوله تعالى: ﴿**لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ** ﴿٤﴾﴾[2]. كما يلفت النظر أيضا عند التأمل فى قيم ومبادئ القتال التى وضعها القرآن الكريم أنها قد

---

(١) الإسراء: ٧٠.

(٢) التين: ٤.

جاءت على حساب بعض الإجراءات الهامة والضرورية للتخطيط للحرب. وهذا ما سوف يتضح عندما نتعرض لتلك القيم والمبادئ بالتفصيل.

ثانيا ـ القيم والمبادئ الأخلاقية للقتال:

١ ـ عدم الاعتداء ورد العدوان بالمثل

فالقرآن الكريم حدد أسلوب استخدام الأداة العسكرية كما سبق الإيضاح من قبل، وفرق تماما بين القتال والاعتداء، فالقتال عمل مشروع دفاعا عن العقيدة وحماية للدعاة من المعترضين على نشر ورفع لواء الإسلام، والقتال لابد له من ضرورة مصداقا لقول المولى عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾﴾[1] وقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٩٣﴾﴾[2] وفى نفس الوقت الذى حدد فيه القرآن الكريم الضرورة للقتال أمر بعدم الاعتداء مصداقا لقول المولى عز وجل: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[3] وقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾﴾[4]. ثم يحدد القرآن الكريم أسلوب التصرف عند تعرض المجتمع الإسلامى للاعتداء من قبل الغير حيث يقول عز من قائل: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾[5]. وواضح من الاستعراض السريع للآيات الشريفة السابقة أن القرآن الكريم قد حدد أخلاقيات وقيم استخدام الأداة العسكرية فى قتال المعترضين لمهمة حاملى الدعوة الإسلامية وعدم الاعتداء والظلم وحتى عند التعرض لهما فإن الرد يجب أن يكون بالمثل.

٢ ـ إعلان الحرب

يعتبر إعلان الحرب أو القتال أحد القيم والأخلاقيات الحميدة التى تدل دلالة قاطعة على مدى احترام القرآن الكريم للنفس الإنسانية، وعلى أن تكريمه لها هو تكريم بغير حدود. وهذه القيمة جاءت على حساب إجراءات عسكرية وتقاليد كثيرة مطلوبة بالضرورة لصالح القتال مصداقا لقول المولى عز وجل: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ

---

(١) الأنفال: ١٥.
(٢) البقرة: ١٩٣
(٣) المائدة: ٢
(٤) البقرة: ١٩٠.
(٥) البقرة: ١٩٤.

إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾[1] وهنا يمكن أن نقف بالتأمل والتحليل أمام هذه القيمة وضروريات تفضيلها عما يتطلبه القتال من خلال الآتى:

أ ـ أن هذه القيمة التى تحدد تماما الفرق بين القتال والعدوان أو الاعتداء وخصوصا إذا ما اتفقنا على أن الأداة العسكرية هى أداة حماية ورد اعتداء فقط، وبالتالى فإن إعلان الحرب أو القتال يعطى للعمل العسكرى مشروعية إسلامية بنص الآية الكريمة الموضحة أعلاه والعكس صحيح.

ب ـ أن هذه القيمة تتعارض تماما مع مبدأ المفاجأة وهو مبدأ هام من مبادئ الحرب، ولمزيد من الإيضاح يمكننا القول أن مبدأ المفاجأة يتم تحقيقه من خلال ثلاث محاور هى النية والاتجاه والتوقيت، وإعلان الحرب يتعارض مع النية، فإذا علمنا أن مبدأ المفاجأة يتحقق بنسبة كبيرة معتمدا على محور التوقيت بالدرجة الأولى وحيث تصل هذه النسبة إلى أكثر من ٩٠٪ ثم محور الاتجاه بنسبة تصل إلى ٨٪، ثم محور النية بنسبة تصل إلى ٢٪ لعلمنا أن إعلان الحرب كقيمة قتالية نص عليها الكتاب الكريم تعارض إجراء قتالى صعب التحقيق أساسا، بل ويمكن أن نصل إلى انعدام هذا التعارض تماما.

جـ ـ أن هناك إجراءات كثيرة تسبق العمليات القتالية مثل إجراءات الفتح الإستراتيجى والتعبوى للقوات ومعظم المدارس، والأكاديميات العسكرية تعتبر الطرف الذى تمكن من السبق فى إجراءات الفتح هو الطرف الأقرب إلى تحقيق أكبر قدر ممكن من المبادئ وبالتالى إمكانية تحقيق أهدافه وإنزال الهزيمة بالطرف الآخر، وهنا لا يكون للنية تأثير كبير على تلك الإجراءات، ويكون إعلان الحرب ذو تأثير غير ملموس على باقى إجراءات الاستعداد القتالى للمعركة.

د ـ إنه إلى عهد قريب جدا وحتى منتصف هذا القرن على وجه التحديد كانت الدول المتحاربة تعلن الحرب بل وغالبا ما يسبق هذا الإعلان إنذار للطرف الآخر لإزالة أو حل مشكلة الصراع التى تؤدى إلى نشوب الحرب، ولم يختف هذا الإعلان اليوم إلا بعد ظهور المنظمات الدولية التى أصبحت إدانتها للطرف الذى بدأ الحرب تشكل بعض المتاعب المعنوية والاقتصادية.

٣ ـ حفظ حق المستأمن وغير المحارب فى الأمن

وفّر القرآن الكريم حق الأمان للمستأمنين الذين ينتسبون للعدو، وأيضا لمن لا يحمل سلاحا أو فكرا يعترض به الدعوة إلى الإسلام وذلك مصداقا لقول المولى عز وجل: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ

---

(١) الأنفال: ٥٨.

بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾﴾[1] لاحظ هنا مدى التسامح القرآنى مع المستأمنين والذين لا يحملون السلاح حتى يمكن القول أن القرآن الكريم قد ساوى بين معاملة المسلم وغير المسلم على أمل أن يكون الإسلام هو نهاية مطاف غير المسلم.

٤ ـ المعاملة الحسنة للأسرى:

وقد تناول القرآن الكريم هذه القيمة من خلال نقطتين هامتين هما

أ ـ النقطة الأولى وهى نقطة تناول التوقيت المناسب لاستبدال الأسرى: وذلك مصداقا لقول الله عز وجل: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾﴾[2]. ويلاحظ هنا أن المقصود بلفظ (له أسرى) أى له حق التصرف فى الأسرى إلا بعد أن يبالغ فى القتال وبذل الكافرين وينتزع منهم نصر الله؛ ذلك لأن استبدال الأسرى بالفدية والمعركة لم تحسم بعد يعتبر إسهاما فى إعادة بناء الجيش المشرك مرة أخرى.

ب ـ النقطة الثانية وهى نقطة تحدد شكل معاملة الأسير، وذلك مصداقا لقول المولى عز وجل: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾﴾[3] ويلاحظ بالنسبة لهذه القيمة أنها قيمة أصبحت سائدة فى جميع عمليات القتال الحديث، فاستبدال الأسرى لا يتم اليوم إلا بعد انتهاء المعارك وتوقفها تماما، كما أن هناك وثيقة دولية موقع عليها من جميع الدول الأعضاء فى الأمم المتحدة تحدد حقوق وواجبات الأسير وأسلوب معاملته، وهى لا تخرج فى مجملها وتفاصيلها عن جوهر الآية الكريمة التى تنادى بحسن المعاملة للأسير والعطف عليه والإيثار على النفس ولو كان بها خصاصه.

٥ ـ الرفق وعدم القسوة عند التمكن

وهذه القيمة تعتبر من أروع القيم القرآنية التى يجب مراعاتها عند تنفيذ القتال وخصوصا عند التمكن ممن أساء إليك، وتنبع روعة القيمة هنا فى أن القرآن الكريم قد حدد عدة تصرفات عند الاستمكان من العدو وهى تصرفات تبتعد تماما فى جوهرها عن القسوة والاعتداء والشماته؛ مصداقا لقول المولى عز وجل: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾[4]. ولعل الجزء الأخير من الآية الكريمة (ولئن صبرتم) هو الذى ينطبق تماما على ما فعله الرسول الكريم ﷺ بكفار مكة يوم دخلها منتصرا وفاتحا قائلا لهم: «لا تثريب عليكم اليوم اذهبوا فأنتم الطلقاء».

---

(١) التوبة: ٦.
(٢) الأنفال: ٦٧.
(٣) الإنسان: ٨.
(٤) النحل: ١٢٦

٦ ـ توزيع الغنائم:

حدد القرآن الكريم أسلوب التصرف فى الغنائم التى تؤول إلى الجيش المسلم المنتصر؛ وذلك فى قول الله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾﴾[1]. كما أن هناك نقطة أخرى هامة نفذها المصطفى ﷺ عند توزيع غنائم معركة وادى حنين وتتمثل هذه النقطة فى الانتظار والتأنى فى التوزيع ابتغاء أن يعود أفراد العدو تائبين مطالبين بما فقدوه، وحيث انتظر ﷺ بضع عشرة ليلة قبل أن يوزع غنائم معركة حنين فلما لم يجئه أحد قام بالتوزيع.

(١) الأنفال: ٤١.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل الثانى

القرآن الكريم والعلم العسكرى

المبحث الأول: مبادئ النشاط العسكرى فى القرآن الكريم

المبحث الثانى: صور النشاط العسكرى فى القرآن الكريم

المبحث الثالث: الشكل التطبيقى للمعركة فى القرآن الكريم

المبحث الرابع: أسلوب تركيز جهود القوات

المبحث الأول

مبادئ النشاط العسكرى فى القرآن لكريم

أولا : عام

١ ـ تعتبر مبادئ أى علم من العلوم الإنسانية التطبيقية هى البديهات التى يجب الالتزام بها ومراعاتها عند التطبيق العملى لها. ومبادئ أى علم قديمة قدم العلم ذاته، بل هى البذور التى أنبتت ثمار العلم نفسه.

والمبادئ العلمية تتصف بأنها لا تكون موضع خلاف فى أى زمان ومكان وإنما الخلاف يكون فقط فى تعدد وجهات النظر بالنسبة لأساليب التطبيق الميدانى، كما أن المبادئ تتصف أيضا بالقدره الاستيعابية لأى مبادئ أخرى جديدة قد تفرضها الظروف المحيطة بالعمل الميدانى المنتظر تطبيقه، وحتى عند وجود خلاف بين الجديد والقديم فإن التوازن التطبيقى يحقق أفضل استفادة ممكنة من كل المبادئ المطلوب العمل فى إطارها.

٢ ـ وينطبق الإيضاح الموضح أعلاه على المدارس العسكرية فى عصرنا الحاضر حيث تعمل كل مدرسة فى إطار مجموعة من المبادئ التى تتناسب والظروف المؤثرة فى العمل العسكرى المنتظر تطبيقه. بل إن الإستراتيجيات التى تعمل فى إطارها هذه المدارس ترتكز على مجموعة من المبادئ. وعلى الرغم من أن المبادئ المعمول بها هنا تختلف عما هو معمول به هناك، فإن ذلك لا يعتبر خلافا حول المبدأ أو المبادئ بقدر ما هو خلاف فى الظروف المحيطة بالعمل العسكرى المنتظر لكل مدرسة، الأمر الذى استدعى قيام كل مدرسة بتوجيه عناية لمبادئ معينة وبأسبقيات معينة.

٣ ـ وعلى الرغم من الإيضاح السابق ومع استعراض مبادئ الحرب أو العمل العسكرى المعمول بها فى المدارس العسكرية فى عصرنا الحاضر فسوف نجد أن هناك مبادئ تعتبر قاسما مشتركا فى جميع هذه المدارس، بل وأيضا نجد أن هذه المبادئ هى المبادئ الرئيسية التى حددت النتائج النهائية للمعارك المؤثرة فى التاريخ العسكرى للبشرية. وأيضا فسوف نجد أن هناك مبادئ أخرى تتواجد فى مدرسة وقد لا تتواجد فى الأخرى، وغالبا ما تكون هذه المبادئ مبادئ مستجدة فرضتها الظروف الخاصة المحيطة بالعمل العسكرى المنتظر تطبيقه.

٣ ـ والتناول القرآنى لمبادئ الحرب كان للمبادئ التى تعتبر قاسما مشتركا فى أغلب المدارس العسكرية وأيضا للمبادئ التى لعبت دورا هاما كبيرا فى النتائج النهائية

للمعارك المؤثرة فى التاريخ العسكرى الإنسانى. وهذا شىء منطقى أن يضفى القرآن الكريم خلوده على ما هو قابل للخلود، ويترك المبادئ المستجدة لاجتهادات البشر كل حسب الظروف المحيطة بالعمل العسكرى.

ثانيا ـ التناول القرآنى لمبادئ النشاط العسكرى:

١ ـ مبدأ الحشد

أ ـ أهم ما يميز التناول القرآنى لمبدأ الحشد هو التكامل وشمول النظرة. فقد كانت النظرة لمبدأ الحشد منذ بدء الخليقة وحتى نزول القرآن لكريم تختلف تماما عما تناوله القرآن الكريم، فالحشد بالمفهوم البسيط والمبسط معا هو إعداد القوات المقاتلة والأسلحة والمعدات فى إطار مقارنات محسوبة لخوض المعركة العسكرية وتحقيق النصر على الطرف المعادى. وهذا المفهوم لم يخرج قبل نزول القرآن الكريم عن المفهوم العددى أو الرقمى أو ما يعرف فى العصر الحديث بالمفهوم الكمى. وعندما نزل القرآن الكريم استكمل النقص الموجود فى المفهوم السائد بين البشر وأضاف إليه ما يمكن أن نطلق عليه الحشد النوعى وهو حشد يعتمد أساسا على مدى كفاءة المقاتل وإعداده معنويا ونفسيا وتدريبيا.

ب ـ وإذا انتقلنا إلى كتاب الله الكريم لنستعرض مبدأ الحشد بشقيه العددى والنوعى فإننا سوف نقف أمام بعض الآيات الكريمة على سبيل المثال بالتأمل والدراسة معا لنعرف الأسلوب القرآنى فى تناول هذا المبدأ.

(١) الحشد الكمى أو العددى: ويظهر هذا النوع من الحشد فى كتاب الله الكريم فى قوله تعالى: ﴿**وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ**﴾[١] وفى هذه الآية الكريمة نجد ملاحظتين بخلاف ما أوضحناه عند تناول فلسفة استخدام القوة فى القرآن الكريم[٢] وهاتان الملاحظتان هما:

الملاحظة الأولى: فى لفظ (أعدوا) الذى جاء فى صيغة الأمر، وهى صياغة توضح مدى أهمية هذا المبدأ، وأيضا توضح أسبقيات أنواع الحشد، حيث إن الحشد الكمى أو العددى هو الأول، والذى يجب أن توجه كافة الجهود لتحقيقه فى المقام الأول.

---

(١) الأنفال ٦٠.

(٢) سوف تلاحظ عزيزى القارئ حجم المعانى الكثيرة التى يمكن استخراجها من آيات كريمة ذات ألفاظ قليلة ومحدودة، وذلك وجه من أوجه الإعجاز القرآنى.

الملاحظة الثانية: فى لفظ (ما استطعتم) وهو لفظ وضع حدا لمقدرة الإعداد والحشد العسكرى، والذى يجب أن يحقق التفوق المطلوب على قوات الطرف الآخر المعادى. فإذا حشدنا كل ما نستطيع ولم نحقق التفوق المنشود الذى يجب تحقيقه فإن كتاب الله تعالى سوف يوضح لنا كيف نستكمل الحشد الكمى من خلال ما هو آت.

(٢) الحشد النوعى ويظهر هذا النوع من الحشد فى قوله الله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ** ﴿٦٥﴾ ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿ **الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ** ﴿٦٦﴾ ﴾[2]. وواضح من الآيتين الكريمتين أن نصر الله هنا لم يرتبط بالتفوق العددى أو الكمى رغم أن هناك آيات كريمة تأمرنا به. وفى مثل هذا الحشد فإن عامل الكفاءه القتالية هنا يلعب دورا كبيرا فى تعويض النقص العددى، ويطلق على الكفاءة هنا النوع أو ما اصطلحنا عليه بالحشد النوعى. وإذا تأملنا الآيات الكريمة سوف نجد أن هذا النوع من الحشد لا يأتى من فراغ ولكن له العديد من المتطلبات التى يمكن أن نوجزها فى الآتى بعد.

أن مخاطبة الله سبحانه وتعالى للنبى ﷺ وللمؤمنين يتطلب أن يكون هناك إيمان بعداله القضية التى يقاتل من أجلها المقاتل، وفى العقيدة الإسلامية كما سبق الذكر نجد أن النشاط العسكرى الإسلامى يعتبر جزء من كل يسمى الجهاد فى سبيل الله، فإذا تم إعداد المقاتل المسلم فى إطار هذا المفهوم كان النصر المبين من عند الله سبحانه وتعالى، مصداقا لقوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ** ﴿٧﴾ ﴾[3].

ثم نصل إلى مطلب آخر مهم يظهر بوضوح فى الآيات الكريمة (إن يكن منكم عشرون صابرون) (فإن يكن منكم مائة صابرة) فالصبر هنا يقصد به العناد والإصرار فى القتال والتصميم على قتال أعداء الله وأعدائنا. وهذا المطلب بلاشك يرتبط بالمطلب السابق وهو الإيمان بعدالة القضية، وأن القتال فى سبيل الله وابتغاء مرضاته وأن العناد والإصرار هو تطبيق لقول المولى عز وجل: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴿٤٥﴾ ﴾[4] وقوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ** ﴿١٥﴾ ﴾[5].

التدريب الجيد واكتساب مهارات القتال، وهذا المطلب يتصف بالمنطقية، فالفرد

---

(١) الأنفال ٦٥.
(٢) الأنفال ٦٦.
(٣) محمد ٧.
(٤) الأنفال ٤٥.
(٥) الأنفال ١٥.

المقاتل الذى تم إعداده وتدريبه بصورة جيدة يعطى نتائج قتالية تتناسب طرديا مع هذا الإعداد والتدريب.

ويلعب هذا المطلب الدور الرئيسى فى تشكيل جوهر الحشد النوعى، وحيث يحثنا القرآن الكريم على ذلك مصداقا لقول المولى عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾﴾(١).

الانضباط العسكرى الصحيح ومعرفة المسئوليات والواجبات المطلوبة وتنفيذها على الوجه الأكمل عن قناعة واقتناع، مصداقا لقول المولى عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾ (٢).

جـ - وهكذا نجد أن التناول القرآنى لمبدأ الحشد تم من خلال مفهومين أساسيين هما الحشد الكمى والحشد النوعى. والمتتبع للتاريخ العسكرى الإنسانى إلى ما قبل نزول القرآن الكريم يجد أن الحشد الذى كان معمولا به هو الحشد الكمى أو العددى فقط وأن التفوق الذى كان يحققه أحد الأطراف المتصارعة فى التعداد غالبا ما كان يلعب الدور الرئيسى فى تحقيق النصر، ولنا فى معارك الإمبراطورية الفارسية والإمبراطورية الرومانية العديد من الأمثلة التى تؤكد ذلك، وهو نفس ما قابله الجيش المسلم أثناء فتح العراق فى معركة القادسية وفتح الشام فى معركة اليرموك حيث كان الطرفان الفارسى والرومانى يتمتعان بتفوق ساحق فى القوات.

وفى عصرنا الحديث وإذا ما رجعنا إلى الماضى القريب بضع سنين إلى ما قبل انهيار ما كان يسمى بالاتحاد السوفيتى واسترجعنا مشاهد أساليب الحشد التى كانت تتم فى كل من حلف وارسو الشيوعى وحلف الناتو الرأسمالى لوجدنا أن الأول كان يتبع أسلوب الحشد الكمى أو العددى، والثانى اتبع أسلوب الحشد النوعى حتى يمكننا القول أن أحدهما وهو حلف وارسو قد تفوق عدديا على حلف الناتو فى بعض الأسلحة والمعدات التقليدية وبنسبة وصلت ١/١٠ وهى نسبة مرتفعة كانت قيادات حلف الناتو تعتقد أنها قادرة على تعويضها بالحشد النوعى.

إننا هنا لسنا فى مجال المقارنة أو المفاضلة بين الحشد النوعى والحشد الكمى ولكننا فى إطار تقرير قرآنى لشكل هذا المبدأ بالضبط والتقرير القرآنى كما هو واضح من الاستعراض السابق يحدد لنا مفاهيم هذا المبدأ ويأمر بتنفيذ أحدهما وهو الكمى (وأعدوا لهم ما استطعتم) ويحض على العمل بالثانى وهو النوعى، (إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين) أن مفاهيم هذا المبدأ بشقيه وكما يقررها القرآن الكريم تحقق

(١) الكهف ٣٠.
(٢) النساء ٥٩.

التكامل والشمول فى إطار وسطية وتعادلية اتخذها القرآن الكريم منهاجا له. ومن هنا يمكننا القول أن القرآن الكريم فى تناوله لهذا المبدأ أمرنا أن نعد القوة قدر استطاعتنا وأن نحسن إعداد وتدريب هذه القوة إعدادا إيمانيا وقتاليا، ذلك هو المفهوم الصحيح والسليم لمبدأ هام من مبادئ العمل العسكرى وهو مبدأ الحشد.

٢ ـ المفاجأة:

تعتبر المفاجأة من مبادئ العمل العسكرى ذات الأهمية الخاصة وخصوصا أن تحقيق هذا المبدأ يساعد كثيرا فى تحقيق العديد من المبادئ الأخرى المطلوبة أو التى تسعى كل قيادة من قيادات الصراع القتالى إلى تحقيقها. والمفاجأة فى تعريف بسيط ومبسط يقصد بها القيام بتنفيذ أعمال وإجراءات قتالية غير متوقعة من قبل الطرف الآخر مما يؤدى إلى إرباك خطوطه وسرعة انهياره وإمكانية تحقيق الطرف الذى حقق المفاجأة للنصر الحاسم فى المعركة. والمفاجأة من خلال هذا التعريف يتم تحقيقها من خلال ثلاثة محاور رئيسية يمكن إيجازهم فى الآتى:

أ ـ المحور الأول وهو الوقت وحيث تعتمد المفاجأة هنا على إخفاء توقيت بدء المعركة. أو تنفيذها فى توقيت غير متوقع من قبل الطرف الآخر. ويلاحظ هنا أن هذا المحور هو الشائع استخدامه عند التخطيط لتنفيذ المفاجأة أو الحصول عليها. بل ويمكن القول أن هذا المحور ـ قاسم مشترك فى المفاجأة المتحصل عليها.

ب ـ المحور الثانى وهو اتجاه العمل العسكرى وحيث تعتمد المفاجأة هنا على إجراءات لإخفاء الاتجاه المحتمل أن تعمل فيه القوات بحيث يؤدى هذا إلى ارتباك الطرف الآخر، وهذا المحور يمكن تحقيق المفاجأة من خلاله بصورة جيدة على المستويات القتالية الدنيا أو المستويات التكتيكية أما على المستويات الإستراتيجية أو التعبوية، فالأمر صعب ما لم يكن مسرح العمليات متعدد الجهات التى تصلح للعمليات القتالية.

جـ ـ المحور الثالث وهو نية القتال وحيث تعتمد المفاجأة هنا على إخفاء نية استخدام القوة العسكرية فى الصراع بين الأطراف المتصارعة ثم مباغتة الطرف الآخر ببدء القتال. ويعتبر هذا المحور صعب التحقيق إن لم يكن مستحيلا، وخصوصا أن الأداة العسكرية أصبحت جزءا من كل يشتمل على أدوات أخرى للصراع مثل الأداة الاقتصادية والأداة السياسية والأداة الثقافية. . . .إلخ. وكلها أدوات قد لا تتيح للأداة العسكرية أن تبدأ معركتها بمفاجأة تعتمد على إخفاء النية.

من الاستعراض السابق يمكننا القول أن تحقيق المفاجأة فى التوقيت يمثل الإمكانية العامة وغير ذلك يمثل إمكانيات خاصة خصوصا مع التطور الذى يتم فى أجهزة الاتصال والرادار والطائرات والأقمار الصناعية.

وإذا انتقلنا إلى التناول القرآنى لمبدأ المفاجأة يمكننا القول أن هذا التناول قد تم للمفاجأة التى تعتمد على المحور الذى يتصف بالعمومية وهو محور الوقت.

وقبل أن نتعرض للتناول القرآنى لمبدأ المفاجأة من المهم أن نستوضح كيف يتم استغلال الوقت فى تحقيق المفاجأة وحيث يتم ذلك من خلال الآتى:

أ ـ أن الأطراف المتصارعة غالبا ما تلجأ إلى بدء العمليات فى التوقيت الذى يعرف لدى العسكريين بالضوء الأول أو التوقيت الذى يعرف بالضوء الأخير وسوف تتضح أسباب ذلك فى النقاط التالية:

ب ـ أن الضوء الأول أو الضوء الأخير يكون موجودا فى وقت الشفق، والشفق كما هو معروف هو الضوء الذى يسبق شروق الشمس، ويسمى الشفق النهارى، والذى يستمر بعد غروب الشمس ويسمى الشفق الليلى، وينقسم الشفق سواء كان نهارى أو ليلى إلى ثلاثة أقسام هم الآتى بعد:

ـ الشفق النجمى وهو شفق من وجهة النظر العسكرية شفق مظلم مثله مثل الليل والظلام.

ـ والشفق البحرى وهو شفق وسطى بين الإظلام والضوء وهو الشفق الأمثل من وجهة النظر العسكرية لتحقيق المفاجأة الشفق المدنى وهو شفق مضىء مثله مثل النهار ويعتبر من وجهة النظر العسكرية نهار.

جـ ـ ويلاحظ هنا أن الشفق النهارى يبدأ بالنجمى ثم البحرى ثم المدنى، أما الشفق الليلى فيكون عكس النهارى حيث يبدأ بالمدنى ثم البحرى ثم النجمى.

د ـ من التقسيم للشفق يتضح ان الشفق المستخدم فى العمليات الحربية غالبا ما يكون الشفق البحرى حيث يتم استغلال ظلامه فى إعداد الترتيبات النهائية للمعركة العسكرية والتى تأخذ انطلاقتها النهائية مع الدخول إلى الشفق المدنى.

هـ ـ مما سبق يتضح أن حسابات ساعة الصفر لأى معركة[1] ترتبط بتوقيتات الشفق وحجم وزمن الأعمال والترتيبات النهائية للمعركة. ويستثنى من ذلك بعض المعارك ذات الطبيعة الخاصة مثل عمليات الإنزال البحرى أو اقتحام الموانع المائية وذلك فى بعض الأحيان.

وإذا انتقلنا إلى الأسلوب القرآنى فى تناول مبدأ المفاجأة وبناء على الإيضاحات الموضحة أعلاه لوجدنا ذلك فى قول المولى عز وجل: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ﴿٣﴾﴾[2]. وإذا تأملنا هذه الآيات الكريمة لوجدنا أننا أمام ثلاث صور، الصورة الأولى عبارة عن خيل متحرك، والصورة الثانية

(١) ساعة الصفر توقيت توجد القوات على خط الاشتباك مع العدو، وفى مدارس عسكرية أخرى على خط الدفاع الأول للعدو، وتنسب إلى هذا الخط توقيت التخطيط سواء قبل الوصول إليه أو بعد مغادرته.

(٢) العاديات ١، ٢، ٣.

عبارة عن خيل تندفع بقوة وهى تخلف ورائها نارا نتيجة اندفاعها واحتكاك أرجلها بالأرض، والصورة الثالثة للخيل وهى تغير وتهجم وتكر فى الصباح. وإذا حاولنا دمج الصور الثلاث معا لقلنا إن الخيل كانت متحركة ثم اندفعت بقوة وسرعة وقامت بالإغارة والهجوم على دفاعات العدو، ومراحل عمل الخيل هنا تنطبق تماما مع توقيتات الشفق سواء كان نهارى أو ليلى. ويمكن استعراض ذلك من الآتى:

إن تحرك الخيل إلى ميدان المعركة لابد أن يكون مخفيا لضمان تحقيق مفاجأة العدو وخصوصا عند دخول القوات إلى المدى الذى تعمل فيه عناصر الاستطلاع المعادية، وأفضل وسيلة هنا لتحقيق الإخفاء هو أن يكون تحرك القوات والخيل فى الظلام أى ما قبل الشفق النجمى وداخل الشفق النجمى.

ب ـ باقتراب الخيل إلى دفاعات العدو واتخاذ الترتيبات النهائية للهجوم تبدأ مرحلة الاقتحام الذى تندفع فيه الخيل بقوة حيث تخرج النار من خلفها (فالموريات قدحا) ويلاحظ هنا أن النار لا تظهر إلا فى وجود بعض الظلام بمعنى أن هذه المرحلة سوف تتم فى الشفق البحرى.

جـ ـ مع منتصف الشفق البحرى حيث الضوء تبدأ عملية الإغارة والهجوم على دفاعات العدو وتستمر حتى الشفق المدنى (فالمغيرات صبحا).

مما سبق يتضح لنا أن القرآن الكريم فى تناوله لمبدأ المفاجأة تناول المفاجأة العامة التى ترتبط بالوقت، واوضح لنا توقيتات الشفق بصورة ضمنية والأعمال والإجراءات التى تتم فى كل نوع من أنواع الشفق بصورة تفصيلية، وما ينطبق هنا على الشفق النهارى ينطبق بصورة عكسية على الشفق الليلى وذلك جوهر تحقيق المفاجأة باستغلال الوقت.

أما عن المحاور الأخرى التى يمكن تحقيق المفأجاة من خلالها فهى محاور تتصف بالصعوبة وإمكانيات التحقيق تكون أفضل على المستويات القتالية الصغرى، أما على المستويات الإستراتيجية العليا فإن الإمكانية هنا تنحصر فى حالات تفاوت الكفاءة بين الأطراف المتصارعة. وكان من الطبيعى أن يكون التناول القرآنى هنا للمحور العام الشائع الاستخدام والدارج العمل به.

٣ ـ التعاون

التعاون مبدأ من مبادئ الحرب الهامة حيث يهدف هذا المبدأ إلى توحيد جهود القوات المقاتله وتحقيق الاستفادة القصوى من جميع الموارد المتيسرة.

ويلعب هذا المبدأ دورا كبيرا فى تحقيق النجاح المنشود فى أى معركة عسكرية، والتناول القرآنى لهذ المبدأ تم من خلال قول المولى عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ

﴿يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ۝٤﴾[1]. ومع الوقوف بالتحليل أمام هذه الآية الكريمة فإننا نجد أنفسنا أمام الآتى :

أ ـ أن الآية الكريمة قد أبرزت صورة التشكيل القتالى المطلوب لنيل رضاء الله سبحانه وتعالى، وهذه الصورة كما هو واضح من النص القرآنى الشريف تتمثل فى الصف. والصف سواء كان طوليا (رتل) أو عرضيا يعتبر هو التشكيل الرئيسى أو الوحدة الأساسية للتشكيل المطلوب لتنفيذ أى عمليات قتالية. وقد اشتق من تشكيل الصف باقى التشكيلات الأخرى المستخدمة فى القتال. وعموما، فإن التشكيل هنا ليس هو المقصد القرآنى فما أسهل وأيسر على أى قوة مقاتلة أن تتخذ هذا التشكيل وهو من التشكيلات الأولية التى تتدرب عليها أى قوة مقاتلة.

ب ـ ثم تنتقل بنا الآية الكريمة بعد ذلك إلى شروط المولى عز وجل التى يجب أن تتوافر فى تشكيل الصف، وقد اختصرت هذه الشروط فى تشبيه إعجازى رائع يطالب الذين يقاتلون فى صف واحد أن يكونوا مثل البنيان المرصوص. والبنيان المرصوص هو البنيان الذى تتوافر فيه القوة والصلابة والمقدرة على التصدى للصدمات القوية..... إلخ. وهذه المقدرة وتلك القوة لا تأتى إلا من خلال تماسك الوحدات البنائية ومساندة كل وحدة لما حولها من الوحدات. والتماسك والمساندة هما جوهر التعاون أثناء القتال، وحيث يهدف هذا المبدأ فى المعركة الهجومية إلى تحقيق مساندة متبادلة بين عناصر المعركة فى الوقت والمكان للوصول إلى السرعة المطلوبة لإنجاز الواجب أو المهمة. أما فى المعركة الدفاعية فإن هدف التعاون أساسا هو زيادة تماسك القوات المدافعه من خلال تنفيذ أعمال قتالية مرتبطة بالتوقيت والمكان أيضا.

جـ ـ مما سبق يتضح أن الآية الكريمة قد حددت شكل وجوهر التعاون القتالى وهو مبدأ هام. وحيث تصل أهميته إلى أنه يجب أن يكون مزروعا فى قلوب المؤمنين وفى إطار إيمانى مصداقا لقول المولى عز وجل فى محكم تنزيله: ﴿وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان﴾[2]. ففكرة التعاون هنا كما جاءت بالآية الكريمة فكرة عامة وشاملة ويندرج تحتها النشاط العسكرى الإنسانى؛ لأن القتال أو الجهاد فى سبيل الله هو من أعمال البر والتقوى المقصودة فى الشق الآمر من الآية الكريمة. ومما يؤكد ذلك أن الشق الناهى فى الآية الكريمة ينهى عن التعاون فى أعمال الإثم والعدوان وهو شق يمكن استخدامه فى تفسير معنى البر والتقوى فى الشق الآمر، وعلى أساس أن العدوان نشاط عسكرى إنسانى ظالم، وعكس ذلك النشاط العادل الذى يعنى القتال فى سبيل الله والجهاد وابتغاء لمرضاته.

(١) الصف ٤.

(٢) المائدة ٢.

٤ ـ المناورة وخفة الحركة

وهو مبدأ يعنى إمكانية تحرك القوات ووصولها إلى المكان المناسب فى التوقيت المناسب. ولأن الحرب تمثل صراعا بين طرفين أو أكثر بهدف الوصول إلى الأماكن الهامة أو التمسك بالأهداف ذات الأهمية العسكرية المؤثرة على مجرى الحرب. لذلك فإن هذا الصراع يأخذ شكل السباق غالبا ما يكون الفائز فيه الذى استطاع الوصول بسرعة إلى الأهداف ونجح فى حرمان الطرف الآخر أو الأطراف الأخرى منها.

من هنا كان يجب على القوات المتصارعة أن تتمتع بإمكانية امتلاك وسائل نقل تحقق لها خفه الحركة وتساعدها على تنفيذ المناورات المطلوبة منها خلال المعركة التى تخوضها.

ومع أهمية المبدأ حتى داخل إطار مبادئ الحرب الأخرى فقد ارتفع رصيده من مجرد مبدأ إلى أن أصبح أحد مكونات المعركة العسكرية الحديثة فى عصرنا الحاضر وحيث تنحصر هذه المكونات فى عنصرين أساسيين هما النيران والحركة.

ووسائل النقل والحركة التى تستخدمها القوات المقاتلة مرت وتمر بمراحل عديدة من التطور، ففى الزمن البعيد كانت الوسائل المتاحة هى الدواب ثم جاءت العربات المجرورة ذات العجل ثم ظهرت العربات ذات المحرك ثم العربات المدرعة والدبابات والطائرات ذات الأجنحة والطائرات العمودية. . . . . إلخ.

وكان من المنطقى أن يكون التناول القرآنى لهذا المبدأ من خلال الوسائل المعروفة والمستخدمة فى تحقيقه أثناء نزوله وعلى أساس أن ما ينطبق عليها سوف ينطبق على الوسائل الجديدة المتطورة والتى تتمتع بخصائص وإمكانيات قتالية تناسب العصر. وقد جاء هذا التناول من خلال الآتى:

أ ـ قول الله سبحانه وتعالى: ﴿**وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ**﴾ [(١)]، والملاحظ فى الآية الكريمة أنها تأمرنا بإعداد رباط الخيل. والرباط هنا هو المكان الذى تتجمع فيه الخيل قبل المعركة استعدادا للإنطلاق منه إلى ساحة القتال. ولفظ الرباط هنا يأتى للدلاله على الكثرة المطلوبة لعملية الإعداد، فصيغة الأمر الواردة بالآية الشريفة لم تكتف بإيضاح وسائل خفة الحركة المطلوبة للمعركة القتالية، وإنما طالبت بكثرة الإعداد من هذه الوسائل.

ب ـ ثم يأتى التناول القرآنى مرة أخرى لهذا المبدأ من خلال قول المولى عز وجل فى محكم تنزيله: ﴿**وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ﴿٣﴾**﴾ [(١)] والملاحظ فى هذه الآيات الكريمة أن المولى عز وجل يقسم بالعاديات وهى

---

(١) الأنفال ٦٠.

(٢) العاديات ١ ـ ٣.

الخيل، والقسم الإلهى هنا شأنه شأن أى قسم قرآنى آخر لا يتم إلا من خلال آيات تفيض على المتدبر فيها الكثير والكثير من المعانى التى توضح عظمة المولى عز وجل وقدرته الخلاقه والرائعة فى الكون العظيم.

والقسم بالخيل هنا لأنها تمتاز بالقوة والسرعة والرشاقة والجلد والتحمل مع سهولة السيطرة عليها وتدريبيها، الأمر الذى تمكن معه الإنسان من استخدامها فى السلم والحرب بصورة شاملة حتى يمكننا القول أن الخيل كوسيلة انتقال وقتال تعتبر الوسيلة المستمرة من عصور ما قبل التاريخ وحتى عصرنا هذا. وحيث مازالت تستخدم مع القوات التى تعمل فى مسارح قتال جبلية أو زراعية. . . . . إلخ.

جـ ـ المبادأة

المبادأة من المبادئ الهامة التي تتفق عليها جميع المدارس العسكرية وحيث يقصد بهذا المبدأ السبق فى اتخاذ الإجراءات القتالية المناسبة التى تجبر الطرف الآخر على التصرف من خلال رد الفعل البعيد عن أى تخطيط أو خطط مسبقة يكون قد تم وضعها أو صياغتها.

والملاحظ هنا فى التعريف السابق أن المبادأة كمبدأ حرب تستهدف بالدرجة الأولى إجبار الطرف الآخر المعادى على التصرف التكتيكى العشوائى، وهو الأمر الذى يترتب عليه سرعة انهيار هذا الطرف وخروجه المبكر من المعركة؛ لذلك فإن هذا المبدأ يكون الصراع عليه من قبل القيادات المتحاربه متصف بالضراوة والاستمرار وأحيانا تبادل الاستحواذ عليه فى حالة وجود تكافؤ بين الأطراف المتحاربة.

وتطبيق مبدأ المبادأة بنجاح والاستحواذ عليه لا يقتصر فقط على مرحلة تنفيذ الأعمال القتالية وإنما يبدأ ذلك مع مراحل المعركة الأولى أثناء الإعداد والتجهيز. ويمكن لنا أن نستعرض التناول القرآنى لهذا المبدأ من خلال الآتى بعد:

أ ـ غرس الخوف والرهبة فى نفوس الأطراف التى يحتمل أن تكون فى موقع العدو فى يوم ما، وحيث يتم هذا الغرس من خلال إجراءات إيجابية تضفى المزيد من القوة على المجتمع الإسلامى، مصداقا لقول المولى عز وجل: ﴿**وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ** ﴿٦٠﴾﴾[1] فالنجاح هنا فى غرس الخوف والرهبة فى نفوس الأطراف الأخرى ومنعها من التفكير فى استخدام الأداة القتالية يعتبر من أرقى الإجراءات المطلوبة لتحقيق المبادأة الناجحة والفعالة.

---

(١) الأنفال: ٦٠.

ب ـ وعندما يتم رفع درجة استعداد القوات بأقصى سرعة ممكنة مع السبق باتخاذ إجراءات متتالية تهدف إلى إجهاض ما يقوم به العدو، فإن ذلك يعتبر تصرفا يتصف بالمبادأه مصداقا لقول المولى عز وجل: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾[1]. ويلاحظ هنا أن تعدد طرق الاستنفار المذكورة فى الآية الكريمة يأتى لحساب عامل السرعة وتحقيق استنفار ميكر ولو لجزء من القوة يتم استخدامه فى إجهاض الإجراءات المعادية.

جـ ـ وعندما يتم قتال العدو من خلال أعمال تتصف بالعزيمة القوية والإرادة الصلبة والإيمان الذى لا يخالجه شىء فى أن الله سبحانه وتعالى سوف ينصر عباده المؤمنين، فإن ذلك سوف يكون من أعمال المبادأة وصداقا لقول الله سبحانه وتعالى: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾﴾[2]. وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾﴾[3].

د ـ وعندما تقاتل القوات لرفع راية الإسلام ونشر وعرض الدعوة المحمدية فى أرجاء المعمورة فإن ذلك يعتبر عملا من أعمال المبادأة والتى لا يعلو عليها عمل آخر. وانظر إلى من يقتل فى سبيل الله فى قول المولى عز وجل: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾﴾[4].

٦ ـ الروح المعنوية:

من المبادئ الهامة التى تتصف بالمنطقية إذ ليس من المنطق أن يمارس الفرد نشاطه العسكرى الذى يتصف بالقسوة والألم والصعوبة وهو يفتقد القناعة أو المزاج النفسى السليم لتنفيذ المطلوب منه من مهام صعبة وواجبات شاقه. ويلاحظ هنا أن التناول القرآنى لهذا المبدأ تم فى إطار يتسم بالشمول؛ نظرا لأهمية المبدأ وخطورة افتقاده. ويمكن أن نرى ذلك من خلال عدة خطوات تحقق الشمولية كالآتى:

أ ـ الإيمان بعدالة القضية التى يخوض المقاتل من أجلها الحرب وهى قضية هامة حسمها القرآن الكريم فى قول الله سبحانه وتعالى﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾[5] فالقتال فى الإسلام ليس مجرد نشاط من الأنشطة الإنسانية تهيمن به طائفة

---

(١) التوبة: ٤١. (٣) الأنفال: ١٥. (٥) النساء: ٧٦.
(٢) التوبة: ١٤. (٤) آل عمران: ١٦٩، ١٧٠.

على غيرها من الطوائف الأخرى أو تستحوذ من خلاله على مكاسب أو مزايا دون غيرها. القتال فى الإسلام نشاط إنسانى يهدف إلى حماية وتأمين عرض الدعوة المحمدية وضمان وصولها إلى كل البشر فى أرجاء المعمورة.

ب ـ التصميم على النصر وتحقيق الهدف الإلهى من القتال، وفى ذلك نجد أن كتاب الله الكريم لم يكتف بإيضاح أن قضية القتال فى سبيل الله هى قضية عادلة فقط ولكن الإيضاح امتد ليصل إلى أنها قضية محسومة النتائج وأن النصر سوف يكون للجانب المسلم مصداقا لقول الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾﴾[1] وقوله تعالى: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾﴾[2] فإذا جاء نصر الله المبين وتحقق وعده بالنصر والعزة. علينا أن نتذكر قول الله سبحانه وتعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾[3] إن هذه التذكرة هى السبيل الوحيد حتى لايجرفنا النصر إلى غياهب الكبر والتكبر.

حـ ـ الثقة بالقادة وإطاعة الأوامر مهما كانت التضحيات وفى ذلك يقول المولى عز وجل: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾[4] وأيضا قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴿٥٩﴾﴾[5] فطبيعة النشاط العسكرى التى تتصف بالصعوبة والإرهاق وقوة التحمل تتطلب لضمان التنفيذ الدقيق والسليم للمهام، والانضباط الذاتى الكامل وخير الانضباط ما قام على الإقناع والإقتناع: وليس هناك أقوى من أمر المولى عز وجل لزرع هذا الاقتناع كما أوضحت لنا الآيتان الشريفتان السابق ذكرهما.

إذن الخطوات الثلاث السابقة هى خطوات هامة وأساسية لغرس الروح المعنوية والحفاظ عليها دائما. لذلك حرص كتاب الله الكريم على إبراز تلك المعانى الهامة وإيضاحها؛ نظرا لما يتصف به مبدأ الروح المعنوية من أهمية بالغة وضروريات ملحة حتى تستطيع القوات تنفيذ المهام والواجبات المكلفة بها على خير وجه. وفى هذا المجال تجدر الإشارة إلى أن العائد المرتبط بانخفاض الروح المعنوية يتمثل فى الإنهيار السريع للقوات وضعف مقاومتها القتالية، وبالتالى تصبح القوات هنا أقرب إلى الهزيمة منها إلى النصر.

---

(١) محمد : ٧ .
(٢) آل عمران: ١٦٠ .
(٣) الأنفال: ١٧ .
(٤) آل عمران ٣٢.
(٥) النساء ٥٩ .

المبحث الثانى
صور النشاط العسكرى فى القرآن الكريم

أولا : عام

١ ـ لم يتخذ النشاط العسكرى منذ بدء الخليقة وحتى يومنا هذا غير صورتين رئيسيتين من القتال، وعلى الرغم من أن هاتين الصورتين تفرع عنهما صورا أخرى فرعين بحكم التطور الذى طرأ على السلاح والعُدّة وفنون وأساليب القتال إلا أن هذه الصور الفرعية ما زالت تنسب إلى الصور الرئيسية بحكم شكل وحجم النشاط المنفذ فى كل منها.

٢ ـ وأول صورة رئيسية من صور النشاط العسكرى هى العمل التعرضى أو العمل الهجومى، وهذه الصورة تعتبر الصورة الأساسية للمعركة القتالية، بمعنى أن الطرف الباحث عن النصر والذى يسعى إليه لن يجد أمامه غير تدمير الطرف الآخر والاستيلاء على الأهداف الهامة الموجودة لديه، وذلك جوهر العمل التعرضى. أما الصورة الثانية من صور النشاط العسكرى فهى الصورة الدفاعية وهى صورة وقتية لا تحقق النصر فى المعركة، بمعنى أن الطرف الذى يلجأ إلى الصورة الدفاعية يلجأ إليها مضطرا بهدف امتصاص قوة الطرف الآخر وتكبيده خسائر أو كسب الوقت لحين إتمام حشد القوات المطلوبة للقيام بالعمل الهجومى.

٣ ـ ولكل صورة من الصور الرئيسية شروط معينة لابد أن تتوافر فى القوات حتى يمكن تحقيق هدفها من المعركة، فالعمل التعرضى يتطلب على سبيل المثال التفوق الكبير فى القوات والمعدات والأسلحة وأن تكون هناك إمكانية كبيرة للمناورة إضافة إلى مناطق الحشد وتجميع القوات وطرق واتجاهات للاقتراب من دفاعات العدو ثم مواقع قريبة من العدو يتم الاستناد عليها للانطلاق وبدء المعركة الهجومية، أما العمل الدفاعى فهو يتطلب أن تكون هناك مواقع أو مقاعد للقتال يستند عليها المدافع ويستفيد منها لكسر التفوق الذى يتمتع به الطرف القائم بالعمل الهجومى وحتى تسمح له الظروف القتالية بالتحول إلى العمليات الهجومية بعد ذلك.

٤ ـ والقرآن الكريم عندما تناول صور النشاط العسكرى تعرض للصورتين الرئيستين وعلى أساس أنهما صور معروفه منذ القدم وحتى نزول القرآن الكريم، ثم إن الصور التى تفرعت بعد ذلك تصنف أيضا تحت صور العمل التعرضى أو العمل الدفاعى. على أن القرآن الكريم فى مجال هذا السياق تعرض لصورة ثالثة تشمل فى

جوهرها العمل الهجومى والعمل الدفاعى معا وهى صورة لم يتوصل إليها الفكر العسكرى الحديث إلا مؤخرا، وعلى وجه الدقة خلال الفترة التى سبقت الحرب العالمية الثانية

ثانيا ـ التناول القرآنى للصورة التعرضية:

١ ـ تناول القرآن الكريم الصورة التعرضية من خلال قول المولى عز وجل: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ﴿٣﴾﴾[1] وهذه الآيات الثلاث تحدد لنا على وجه الدقة شكل العمل التعرضى كما سبق أن أوضحنا أن نفس هذه الآيات الكريمة تحدثت عن مبدأ المفاجأة ومبدأ المناورة وهما من المبادئ الهامة للعمل التعرضى. وعندما نقف أمام هذه الآيات ونتأمل ونتدبر من زاوية أخرى غير المبادئ سوف نجد الآتى:

أ ـ أن القَسَم الإلهى بالخيل هنا لا يقتصر على الخيل لذاتها ولكن يتعدى ذلك إلى أى معدة قتال تتمتع بالمناورة وخفة الحركة وتقوم بنفس الدور الذى تقوم به الخيل فى وقت نزول القرآن الكريم. ولاحظ هنا أن الخيل وقياسا عليها العربات المدرعة والدبابات تعتبر أدوات قتال رئيسية للمعركة الهجومية. ومن هنا يمكننا القول أن القسم الإلهى قد رفع مرتبة المعركة الهجومية أو التعرضية وجعلها المعركة الرئيسية لتحقيق النصر وما عداها من معارك أو صور إنما هى صور وقتية تتطلب سرعة التحول للتعرض والهجوم لتحقيق النصر الذى هو هدف ومقصد جميع الأطراف المتصارعة.

ب ـ ثم تحدد لنا الآيات الكريمة مراحل العمل التعرضى أو الهجومى داخل إطار يتسم بالشمول مع جميع متطلبات العمل العسكرى مثل مبادئ الحرب والسيطرة على أعمال القتال.....إلخ. ويمكن استعراض المراحل كما ورد بالآيات الكريمة من خلال الآتى:

(١) المرحلة الأولى وهى مرحلة تحرك القوات بهدف الاقتراب من دفاعات العدو لتنفيذ المعركة الهجومية، فكما سبق الإيضاح أن العمل الهجومى أو التعرضى يتطلب التفوق فى القوات والأسلحة والمعدات وحشد القوات المتفوقة لابد وأن يتم فى أماكن حشد بعيدة عن أنظار العدو حتى لا تفقد القوات عنصر المفاجأة قبل أن تبدأ المعركة الهجومية. وفى التوقيتات المحددة تتحرك القوات من أماكن حشدها فى اتجاه دفاعات العدو مع مراعاة أن يكون هذا التحرك مخفى لأكبر مسافة ممكنة. لذلك غالبا ما يكون تحرك القوات المهاجمة تحت ستر الظلام وخصوصا فى مراحله الأخيرة. وقد عبر القرآن الكريم عن هذه المرحلة فى قول المولى عز وجل (والعاديات ضبحا). صحيح، إن الآية الكريمة لم تحدد توقيت التحرك ولكن ذلك سوف يتضح من خلال الآية التالية.

(١) العاديات : ١، ٢، ٣.

(٢) المرحلة الثانية وهى مرحلة الاتصال بالقوات المدافعة للطرف الآخر وفى هذه المرحلة يتم العديد من الإجراءات حيث تتحول القوات المهاجمة من تشكيلات المسير والتحرك إلى تشكيلات القتال والاقتحام، ونظرا لأن التحول هنا يتطلب سيطرة على القوات وسرعة ودقة الإجراءات، لذلك يفضل أن تتم هذه المرحلة فى توقيت به رؤية محدودة تسمح بتنفيذ المطلوب وفى نفس الوقت تحرم العدو من كشف القوات المهاجمة. وقد عبر القرآن الكريم عن هذه المرحلة من خلال قول المولى عز وجل (فالموريات قدحا). ويلاحظ هنا أن الشرارة التى تخرج من أرجل الخيل لا تكون واضحة وجلية إلا مع درجة الظلام حتى ولو محدودة. معنى ذلك أن هذه المرحلة تتم مع بداية الضوء الأول، ويستنتج من ذلك أن المرحلة الأولى تتم تحت ستر الليل والظلام.

(٣) المرحلة الثالثة وهى مرحلة التعرض والهجوم والتى يتم من خلالها تنفيذ اختراق دفاعات العدو. وقد عبر عنها القرآن الكريم بقول الله سبحانه وتعالى: (فالمغيرات صبحا). ويلاحظ هنا أن الإغارة عبارة عن عمل قتالى سريع... إلخ، وكلها صفات يجب أن يتصف بها العمل التعرضى أو الهجومى. وفى هذا الآية ذكر التوقيت صراحة، حيث إن الإغارة والهجوم تتطلب رؤية واضحة لأغراض السيطرة، ومن هذا التوقيت الواضح يمكن أن نؤكد ما تم استنتاجه من توقيتات للمراحل السابقة.

٢ ـ مما سبق يتضح أن الآيات الثلاث الأولى من سورة العاديات تتناول العمل التعرضى أو الهجومى بصورة متكاملة وشاملة وفى إطار إعجازى رائع، فالآيات الثلاث التى تحتوى على ستة ألفاظ نقط قد أوضحت لنا الآتى:

أ ـ أن المعركة الهجومية والتعرضية هى الصورة الأساسية للمعركة وأنه لا نصر يرتجى بغير تنفيذ الهجوم أو التعرض.

ب ـ مراحل المعركة الهجومية أو التعرضية وهى مراحل ثلاث مع تحديد التوقيت المناسب لكل مرحلة (تحرك ـ دفع ـ هجوم وإغارة).

جـ ـ مبادئ الحرب والعمل العسكرى التى يجب تحقيقها وخصوصا التى تخدم العمل التعرضى والهجومى (مفاجأة ـ مناورة ـ سيطرة ... إلخ).

ثالثا ـ التناول القرآنى للصورة الدفاعية:

١ ـ الصورة الدفاعية عبارة عن معركة تتم من خلال التمسك بالأرض لتعويض النقص الموجود فى القوات، وبالتالى فهى معركة وقتية. بمعنى أن القوات المدافعة تلجأ إلى هذه الصورة مضطرة، وذلك من أجل كسب الوقت اللازم لإعداد القوات المخصصة للقيام بالعمليات التعرضيه أو استنزاف قوة الطرف الآخر انتظارا للتوقيت الحاسم الذى تسمح فيه مقارنة القوات بتوجيه الضربات المضادة أو المعاكسة.... إلخ. ومن هنا نجد

أن المدافع غالبا ما يحتفظ باحتياطى من القوات والنيران لتنفيذ العمل التعرضى الذى هو الصورة الأساسية للمعركة والطريق الوحيد لتحقيق النصر. وتعتمد الصورة الدفاعية فى مراحلها الأولى على مواقع دفاعية أو مقاعد دفاعية كما ورد فى النص القرآنى الكريم الذى تناول هذه الصورة من صور المعركة.

٢ ـ ومقاعد القتال أو مواقع القتال التى تستخدم من قبل الطرف المدافع عبارة عن تجهيزات معينة لمناطق وأراضى حاكمة ومسيطرة على طرق اقتراب وتقدم قوات الطرف المهاجم أو القائم بالعمل التعرضى بحيث يكون لتواجد القوات المدافعة فى هذه المناطق أو الأراضى تأثير كبير على القوات المهاجمة المقتربة من الدفاعات، بالإضافة إلى ذلك فإن تلك المناطق والأراضى بعد تجهيزها وإعدادها تحقق الحماية للقوات المدافعة، وبالتالى السيطرة على الأعمال الدفاعية التى تشكل جوهر الصورة الدفاعية.

٣ ـ ولقد تناول القرآن الكريم هذه الصورة الدفاعية فى قول المولى عز وجل: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾﴾[1] وهنا يجب أن نتوقف بالدراسة والتأمل أمام تلك الآية الكريمة من خلال الآتى:

أ ـ أن الأسلوب القرآنى هنا عبر عن المعركة الدفاعية من خلال لفظ (مقاعد للقتال) وهذا الأسلوب يحمل الكثير من معانى الإعجاز، فالمعروف أن الإعداد والتجهيز للمناطق والأماكن الدفاعية يمر من خلال ثلاث مراحل هى كالآتى:

(١) المرحلة الأولى: وهى عبارة عن تجهيز وإعداد ضعيف، وحيث تكون استفادة المدافع من الأرض ضعيفة، وغالبا ما يكون وضع احتلال الأرض هنا من الوضع راقدا.

(٢) المرحلة الثانية: وهى عبارة عن تجهيز وإعداد مستمر للمواقع؛ بغرض تعميق تلك المواقع حتى يصل وضع احتلال الأرض إلى الوضع مرتكزا أو قاعدا، وبالطبع فإن استفادة المدافع هنا من الأرض تكون أفضل بكثير مما هو متاح فى المرحلة الأولى.

(٣) المرحلة الثالثة وهى عبارة عن تجهيز وإعداد كامل للمواقع والأرض ويكون وضع الاحتلال هنا من الوضع واقفا وتكون الاستفادة من الأرض هنا استفادة كاملة وأفضل من المرحلتين السابقتين.

ب ـ والقرآن الكريم عندما استخدم لفظ (مقاعد للقتال) إنما يحثنا هنا على الحد الأدنى المقبول للإعداد والتجهيز للمعركة الدفاعية حيث ما دون المقاعد تكون المعركة الدفاعية سريعة وعاجلة وغير مضمونة النتائج.

جـ ـ ومن المعروف أن لفظ فعل الأمر (اقعد) لا يصدر من الآمر إلا للفرد الواقف فى اللغة العربية بعكس فعل الامر (اجلس الذى يصور من الآمر للفرد النائم.

(١) آل عمران: ١٢١.

وبالتالى فإن استخدام القرآن الكريم للفظ مقاعد للقتال على تلك الأماكن القتالية الدفاعية يعنى أنها أماكن تسمح بالقتال من أوضاع الوقوف والقعود والارتكاز، وهى أماكن تعنى بالمفهوم العسكرى أنها مواقع دفاعية مجهزة تجهيزا كاملا أو شبه كامل بحيث تحقق التأمين الشامل للقوات مع إمكانية القتال بصورة جيدة تحقق لها النجاح فى المعركة.

د ـ إن الآية الكريمة قد نزلت أثناء قيام الرسول القائد ﷺ بتحديد مواقع قواته فى معركة أحد. ومن هنا نخرج بدلاله أخرى هامة فى التناول القرآنى للمعركة الدفاعية. وتشير هذه الدلالة إلى أن عملية التحديد للمواقع (كما نفذها الرسول الكريم) لا يمكن أن تتم إلا إذا سبقتها مجموعة من الإجراءات مثل استطلاع الأرض واختيار أفضل الأماكن الصالحة للمعركة الدفاعية..... إلخ. وسوف يقودنا هذا التحليل إلى استنتاج هام عن ضرورة تحديد المواقع الدفاعية بصورة نهائية فى إطار مجموعة من الإجراءات العلمية يطلق عليها إجراءات التخطيط للمعركة، وهى إجراءات تتم من قبل القياده المسئولة عن المعركة ثم تتسلسل عملية التحديد من قبل القيادات الأدنى ثم الأدنى وليس العكس مع مراعاة أن يعمل الأدنى فى إطار فكرة المستوى الأعلى، وبالتالى فسوف تكون المعركة الدفاعية إذا تمت فى هذا الإطار معركة دفاعية مخططة ومجهزة وتم الإعداء لها بصورة جيدة تتيح للقوات إمكانية تحقيق الغرض منها.

هـ ـ ثم نقف هنا أمام تساؤل هام حول التناول القرآنى للمعركة الدفاعية المجهزة تجهزا كاملا أو شبه كامل وعدم تناول المعارك الدفاعية السريعة أو غير المجهزة. والحقيقة هنا أن عدم تناول القرآن الكريم لهذه المعارك لا يعنى التقليل من أهميتها أو من إمكانية حدوثها، فالتناول القرآنى وخصوصا فيما يتعلق بالمعارك التى تمت خلال فترة نزوله عبارة عن دورس تمثل مبادئ وقواعد وأسس العمليات القتالية. والمعارك الدفاعية السريعة والعاجلة يجب ان تكون لظروف استثنائية طارئة حيث تقل فيها الإجراءات القائمة على المبادئ والأسس القتالية السليمة وفى جميع الأحوال فإن القوات المقاتلة القادرة على تنفيذ معركة دفاعية شبه كاملة أو كاملة لديها القدرة على تنفيذ المعركة الدفاعية السريعة والعكس غير وراد هنا.

رابعا ـ التناول القرآنى للصورة الوسطية (بين الهجوم والدفاع):

١ ـ هناك صورة قتالية ثالثة يمكن أن نطلق عليها الصورة الوسطية، حيث إنها صورة تجمع بين العمل التعرضى والدفاعى. وقبل أن أتكلم عن التناول القرآنى لهذه الصورة أحب أن أوضح أن الفكر العسكرى الحديث لم يتوصل لهذه الصورة إلا من خمسين عاما تقريبا. وقد تناول القرآن الكريم هذه الصورة من خلال قول المولى عز وجل: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾** ﴾[1].

(١) الأنفال ١٥.

٢ ـ وإذا وقفنا بالتأمل والدراسة أمام الآية الكريمة فسوف نجد أنفسنا أمام مجموعة من الحقائق التى يمكن إيجازها فى الآتى بعد:

أ ـ إن الآية الكريمة تتحدث عن صورة تشتمل على تلاقى أو تقابل بين طائفتين أحدهما مسلمة والأخرى كافرة.

ب ـ إن كلا الطائفتين تمثل قوة مسلحة ومقاتلة لأن لفظ (زحفا) هنا يضفى على الصورة التحرك البطىء الحذر للقوات كما يضفى الكثرة على القوات، وكلها معانى لا تنطبق إلا على قوات تتحرك فى ميدان القتال حيث الكثرة مطلوبة لأعمال التأمين والحذر والبطء لأعمال الاستطلاع والتصرف عند التلاقى.

٣ ـ ثم نصل إلى الأسلوب الأمثل الذى حدده القرآن الكريم والذى تتصرف من خلاله القوات المسلحة عندما يحدث هذا التلاقى أو التقابل؛ وذلك طبقا لما جاء بالآية الكريمة، ونجد هذا الأسلوب فى الآتى:

أ ـ أنه عند حدوث التلاقى أو التقابل مع الجيش الكافر فإن التصرف من قبل الجيش المسلم يجب أن يبتعد عن الانسحاب أو التراجع أو الفرار (فلا تولوهم الأدبار).

ب ـ بناء على ما جاء فإن مرحلة التلاقى تتطور إلى مرحلة قتال. فكيف يتم القتال وبأى صورة فى إطار الاحتمالات العديدة لشكل وحجم وتعداد الجيش الكافر؟ إن هذه الاحتمالات لن تخرج عن الآتى:

(١) الاحتمال الأول: أن يتم التلاقى مع قوة صغيرة للعدو، وهنا يكون القتال معها فى إطار معركة هجومية أو تعرضية حيث الكثرة هنا للجيش المسلم.

(٢) الاحتمال الثانى: أن يتم التلاقى مع قوة تعادل قوة الجيش المسلم وهنا على القوات المسلمة أن تلجأ بجزء من القوة إلى العمل الدفاعى بهدف تكبيد الطرف المعادى خسائر تخل بالتعادل الموجود بين القوات وعندما يميل الميزان العددى لصالح القوات المسلمة تتحول إلى الأعمال التعرضية أو الهجومية اللازمة لتدمير القوات المعادية.

(٣) الاحتمال الثالث: أن يتم التلاقى مع قوة متفوقة للطرف الكافر، وفى هذه الحالة فإن الأسلوب الأنسب يتمثل فى اتخاذ الأعمال الدفاعية السريعة بكل القوة فى محاولة لكسب الوقت لحين وصول مزيد من القوات وحتى حدوث التحول فى الميزان العددى لصالح القوات المسلمة.

٤ ـ ومن خلال الاحتمالات الثلاثة السابقة التى تعرضنا لها يتضح أن الاحتمال الثانى يتطلب أسلوب قتال من خلال المزج بين الصورة التعرضية أو الهجومية والصورة الدفاعية. وهذه الصورة التى لم تعرف فى عالمنا اليوم إلا بعد اختراع الدبابة تسمى

بالمعركة التصادمية وهى معركة تعتبر من أصعب المعارك حيث تحتاج إلى قيادات على درجة عالية من المهارة والعلم وقوات تصل فى تدريبها إلى مستوى الاحتراف.

خامسا: مما سبق يتضح أن القرآن الكريم قد تناول بالإعجاز الإلهى الصورة التعرضية أو الهجومية ثم الصورة الدفاعية ثم الصورة الوسطية التى تجمع بين الهجوم والدفاع. ويلاحظ هنا أن هناك صورة رابعة نهانا عنها الكتاب الكريم من خلال الآية الكريمة التى استخرجنا منها الصورة الثالثة وخصوصا فى أسلوب النهى (فلا تولوهم الأدبار). والمعنى هنا أن لا نتراجع أو ننسحب. ويمكن لنا أن نتناول هذه الصورة وأسباب النهى الإلهى عنها من خلال الآتى بعد:

١ ـ الانسحاب أو التراجع أو الارتداد صورة من صور القتال التى تلجأ إليها القوات عندما يكون الطرف الآخر يتمتع بتفوق كبير فى القوات والوقت لن يسمح بوصول أى إمدادات أخرى يكون لها تأثير على هذا التفوق، وبالتالى فإن خسارة المعركة نتيجة حتمية ومن هنا يكون الانسحاب أمرا ضروريا لتقليل الخسائر والحفاظ على معنويات القوات.

٢ ـ هذه الصورة القتالية نهانا المولى عز وجل عن ممارستها كأسلوب قتالى. والنهى هنا نهى إعزاز وإكبار لدين الله عز وجل ولجيوش الله التى تحمل رايته وراية المصطفى ﷺ. وهنا يحق لنا أن نتساءل عن الحل أو الأسلوب الذى يمكن اتباعه فى حالة مواجهة عدد متفوق بصورة كبيرة أو أن ظروف وعوامل القتال تحتم اتخاذ قرار بالتراجع أو الانسحاب للتخلص من المعركة. هنا يكون المبرر كالآتى:

١ ـ أن المولى سبحانه وتعالى عندما أمر المؤمنين بالصمود أمام الأعداء مهما كانت كثرتهم أمرهم بذلك لأن العسكرية الإسلامية تتمتع بمجموعة من الخواص أهمها على وجه الإطلاق هو دعم ومساندة السماء لها كما سبق الإيضاح خلال صفحات هذا الكتاب.

ب ـ ثم هل لنا أن نقف أمام آيتين من آيات الكتاب الكريم لنجد الإجابة الشافية فى قول المولى عز وجل: ﴿**لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾**﴾[1].

هنا تسكت الألسن ويتوقف العقل عن البحث أمام فيض النور والإيمان.

---

(١) التوبة: ٢٥، ٢٦.

المبحث الثالث

الشكل التطبيقى للمعركة فى القرآن الكريم

أولا : عام

تتفق المعارك العسكرية مهما كانت صورها فى المراحل والتكوين الذى تنفذ به حيث تبدأ المعركة بمرحلة الاستنفار القتالى أو ما يعرف فى عصرنا الآن برفع درجة الاستعداد القتالى. ثم مرحلة الحشد للقوات وعناصر المناورة، ثم يلى ذلك مرحلة تخطيط وتنظيم القوات بصورة تسمح لها بالدخول فى المعركة، ثم نصل إلى المرحلة الأخيرة وهو تنفيذ وإدارة المعركة وتحقيق المهام التى تم تكليف القوات بها.

والقرآن الكريم تناول المعركة العسكرية من خلال عدة آيات متفرقة يمكن من خلال التأمل والدراسة أن نصل إلى الشكل التطبيقى الأمثل للمعركة. وقبل الدخول فى تناول هذا الموضوع أوجه نظر القارئ العزيز إلى أن الآيات التى سوف أقف أمامها وأستعين بها فى تناولى للموضوع سبق الاستعانة بها من قبل فى موضوعات أخرى من موضوعات هذا الكتاب. وقد أردت أن أوضح هذه الملحوظة حتى يلمس القارئ غزارة المعلومات والمعانى التى يمكن أن نستخرجها من كلمات وألفاظ قليلة تحتويها الآيات الكريمة. وسوف تستمر هذه الآيات الكريمة الطاهرة قابلة لاستخرج المزيد والمزيد من المعانى والمعلومات إلى يوم قيام الساعة، وصدق المولى عز وجل فى حكم تنزيله إذ يقول: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾(١).

ثانيا: الشكل التطبيقى للمعركة فى القرآن الكريم

١ ـ أول مرحلة من مراحل المعركة العسكرية هو مرحلة رفع درجة الاستعداد واستدعاء الأفراد المقاتلين وإعداد وتجهيز الأسلحة والمعدات. وقد عبر القرآن الكريم عن هذه المرحلة بلفظ أكثر دلالة وشمولا وهو لفظ الاستنفار وقد جاء بالكتاب الكريم أكثر من آيه تتحدث عن الاستنفار القتالى وكان أكثر الآيات ارتباطا بأحداث المجتمع الإسلامى ما نزل منها فى معركة تبوك وهى آخر المعارك التى شارك فيها وقادها الرسول القائد ﷺ.

---

(١) الكهف : ١٠٩.

وعندما نقف أمام الآيات الكريمة التى تناولت الاستنفار نجد أن تلك الآيات تحثنا وتأمرنا وتطلب منا الآتى بعد.

أ ـ أن الاستنفار القتالى فرض عين على كل مسلم بالغ عاقل قادر ـ لقول المولى عز وجل: ﴿إِلاَّ تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾[1]. وهذا الفرض القرآنى يعتبر فرضا منطقيا وطبيعيا فرضه المولى عز وجل على أفراد الأمة المحمدية المكلفون بحمل الرسالة الخاتمه. وعرضها على أرجاء المعمورة. ولعل حادثه الثلاثه الذين تخلفوا عن معركة تبوك ومقاطعة المسلمين لهم ثم توبه المولى عز وجل عليهم بعد ذلك كما جاء فى محكم التنزيل ﴿وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾[2]. فالآية كما هو واضح دليل ويقين أكيد عن المكانة لموضوع الاستنفار القتالى فى حياة المسلم وعن مدى الإثم والجرم الذى يرتكبه المسلم البالغ العاقل القادر حينما يتخلف عن نداء الله وسوله.

ب ـ ومن المعروف أن الاستنفار القتالى عبارة عن مجموعة من الإجراءات التى تهدف إلى سرعة استدعاء وتجهيز القوات تأهبا لحشدها فى أماكن القتال أو مايطلق عليها فى عصرنا الحاضر مسارح العمليات، وقد حدد لنا القرآن الكريم مراحل وأساليب الاستنفار القتالى فى قول المولى عز وجل: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾[3]. وعلى الرغم من أن بعض التفاسير ترى أن المقصود بهذه الآية الكريمة هى الاستنفار الفردى والاستنفار الجماعى أو كلاهما معا. إلا أن المفهوم الحقيقى لتلك الآية الكريمة من وجهة النظر العسكرية يتعدى ويتخطى التفاسير التى التزمت بالإيضاح اللفظى فقط وابتعدت عن جوهر الموضوع، فالآية الكريمة تدعونا إلى إتمام عملية الاستنفار من خلال الأسلوب التراكمى وهو الأسلوب الأمثل لتنفيذ عملية الاستنفار ـ والذى يتم من خلاله استنفار الإسراع (خفافا) وهم المقاتلون ومعهم الأسلحة والمعدات الخفيفة ثم الأقل سرعة فالأقل سرعة ثم البطىء (ثقالا) وهم العناصر الإدارية التى يكون معهم الاحتياجات الإدارية اللازمه لاستمرار المقاتلين فى الميدان. ويلاحظ هنا أن الأسلوب التراكمى فى الاستنفار يحقق السرعة المطلوبة خلال هذه المرحلة، وخصوصا إذا علمنا أن القوات المسلحة فى أى دولة تخصص وقتا كبيرا للتدريب على إجراءات الاستنفار بهدف الوصول إلى إتمام

(١) التوبة: ٣٩.
(٢) التوبة: ١١٨.
(٣) التوبة: التوبة: ٤١.

العمليـة فى أقل وقت ممكن. إن التأخـير فى تنفيـذ هذه المرحلة أو فقـد عنصر الوقت يترتب عليه إتاحة الفرصة للطرف المعادى لإمكانية تحقيق مبدأ المبادأة.

جـ ـ وعلى الرغم من أن عمليات الاسـتنفار القتالى تتم فى مناطق خلفيـة بعيدة عن نظر ونيران العـدو إلا أنها فى بعض الأحـيان قد تتم فى المناطق المخـصصة لحـشد القوات وتجميعها. وهنا أو هناك فإن الأسلوب التراكمى للاستنفار ورفع درجة الاستعداد للقوات هو الأسلوب الأمثل والأسرع كما حددته الآية الكريمة بالمفهوم الشامل والعمـيق له.

٢ ـ وعندما نـنتقل إلى مرحـلة حشد القـوات نجد أن هذه المرحلة تبـدأ وتتم فى مناطق مخصصة لذلك. وفى هذه المناطـق تدخل القوات التى تم استنفارها ورفع درجة استعدادها لكى يتم إعدادها وتجهيزها للمعرك؛ مصداقا لقول المولى عز وجل: ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ** ﴿٦٠﴾ ﴾[1]. ويلاحظ أن الإعداد كما جاء فى الأمـر الإلهى من خلال الآية الكريمة قد احتوى على نوعين من الإعداد أو الحشد وهما:

أ ـ الإعداد الصـريح وشمل هذا الإعـداد العنصر القتـالى (من قوة) بما مـعه من أسلحة وذخائر ووسائل التحرك اللازمة لتنفيذ المناورة فى المعركة (رباط الخيل).

ب ـ الإعداد الضمنى وشمل هذا الإعداد العنصر الإدارى اللازم لضمان استمرار العنصر القتالى فى المعركة مع القدرة على تحقيق المهام المكلف بها، وقدرة الاستمرار هنا والقدرة أيضا عـلى إنجاز المهام القتاليـة هما الأساس الذى يتم من خلالـه غرس الرهبة والخوف فى صفوف الأعداء (ترهبون به عدو الله وعدوكم).

وفى مرحلة حـشد القـوات تتم العديد من الإجراءات الضـرورية لضمـان دخول القوات إلى المعركة وهى تتمتع بكفاءه قتالية عالية، ومن هذه الإجراءات الآتى بعد:

أ ـ تأمين القوات التى يتم حشدها وخصوصـا ضد الأعمال العدائية التى قد يقوم بها العدو بهـدف إجهاض التحضيرات التى تتم وإنزال خسـائر جسيمة يكون لها تأثير سلـبى على إجراءات الحشد. وفى هذا المجال يدعـونا القرآن الكريم إلى اتخاذ الحيطة والحذر فى قول المولى عز وجل ﴿ **وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ**

(١) الأنفال: ٦٠.

وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حذركم إن الله أعد للكافرين عذابا مهينا ﴿١٠٢﴾ ﴾ (١).

ب ـ التخطيط والتنظيم السليم للمعركة واتخاذ القرار المناسب بعد الاستماع لآراء المعاونين وذوى الخبرة، مصداقا لقول الله تعالى: ﴿ فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين ﴾ (٢). وهذا ما طبقه الرسول القائد ﷺ فى معركة بدر عندما استمع لرأى الحباب بن المنذر وعمل به. وعلى الرغم من الحسابات الدقيقة والمعقدة التى تتصف بها إجراءات التنظيم والتخطيط للمعركة وخصوصا فيما يتعلق بالمقارنات وشكل مغادرة القوات التى يجب أن تحقق وتعرف قبل بدء وإدارة المعركة. إلا ان القرآن الكريم قد وضح لنا من الاعتبارات وقدم إلينا وإلى الفكر العسكرى البشرى مفهوم الحشد المعنوى والنوعى ولم تعد المقارنات العددية للقوات أو الحشد الكمى هو الفيصل فى تحديد شكل وتشكيل ومناورة القوات ونظامها المطلوب لتحقيق النصر، وحيث أصبح للجانب الإيمانى دور هام فى تحديد نوعية المقاتل ودرجة كفاءته القتالية. ولنا فى هذا السياق أن نقف بالتأمل والتدبر أمام بعض آيات الكتاب الكريم مثل

(١) قول المولى عز وجل: ﴿ ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون ﴿١٢٣﴾ ﴾ (٣).

(٢) وقول المولى عز وجل: ﴿ لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ﴿٢٥﴾ ﴾ (٤).

(٣) قول المولى عز وجل: ﴿ بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين ﴿١٢٥﴾ ﴾ (٥).

جـ ـ الحصول على معلومات عن العدو بصورة مستمرة وحيث تعتبر هذه المعلومات هى الجوهر الرئيسى الذى تنظم وتدار المعركة من خلاله، كما أن جمع المعلومات عملية مستمرة فى وقت الحرب والسلم وإن كانت عناصر الاستخبارات والاستطلاع تنشط مع بدء عملية الاستنفار القتالى للقوات وحشدها فى المناطق المحددة لذلك. وتخضع المعلومات الجارى تجميعها لما يسمى بالتحليل والخروج باستنتاجات

(١) النساء: ١٠٢.
(٢) آل عمران: ١٥٩.
(٣) آل عمران: ١٢٣.
(٤) التوبة: ٢٥.
(٥) آل عمران: ١٢٥.

بهدف الوصول إلى التصرف المؤكد الذى سوف يتصرف من خلاله الطرف الآخر مع وضع البدائل المحتملة لهذا التصرف، وقد تناول القرآن الكريم هذه النقطة من خلال قول المولى عز وجل: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾﴾[1]. والنبأ اليقين كما جاء بالآية الشريفة هو خلاصة جميع الإجراءات التى تقوم بها أجهزة الاستخبارات وعناصر الاستطلاع. وحيث يتم تقديم هذا النبأ اليقين إلى القوات المنفذه للقتال لكى تقوم بالتصرف القتالى على أساسه. ويلاحظ هنا أن تصرف القوات التكتيكى يتناسب بصورة طردية مع حجم ودقة المعلومات التى تتوافر لها. لذلك كان التعبير القرآنى الوارد بالآية المشار إليها من سورة النمل عبارة عن اختصار شامل وجامع لمدى أهمية المعلومات وشكل الدقة المطلوبة لها.

د ـ التحرك بالقوات إلى ميدان المعركة وحسب الصورة القتالية التى سوف يتم من خلالها المعركة سواء كانت صورة تعرضية أو هجومية أو صورة دفاعية أو صورة تجمع بين الدفاع والهجوم. ويمكن استعراض هذه النقطة من خلال السياق الآتى.

(١) الصورة التعرضية وهى العمل الهجومى الذى يتمثل فى تحرك القوات من مناطق حشدها وقيامها عند الاقتراب من العدو بالإنتاج والهجوم على دفاعاته ويوضح لنا القرآن الكريم هذه الصورة فى قول المولى عز وجل﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ﴿٣﴾﴾[2].

(٢) الصورة الدفاعية وهى العمل الدفاعى الذى يتمثل فى تحرك القوات من مناطق حشدها وقيامها باحتلال مواقع دفاعية فى مناطق تمثل أهمية تكنيكية وتعبوية وإستراتيجية. ويوضح لنا القرآن الكريم هذه الصورة فى قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾﴾[3].

(٣) الصورة الهجومية الدفاعية وهى عبارة عن عمل تصادمى يتمثل فى تحرك القوات من مناطق حشدها إلى مناطق قتال أمامية حيث تتقابل مع قوات أخرى معادية وينتج عن هذا التقابل ما يعرف فى عصرنا الحاضر بالمعركة التصادمية التى تتم من خلال معركة دفاعية سريعة بجزء من القوات ثم معركة هجومية لتدمير قوة العدو تحت ستر القوة الدفاعية. ويوضح لنا القرآن الكريم شكل هذه المعركة فى قول المولى عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾﴾[4].

٣ ـ ثم نصل بعد ذلك إلى الشكل النهائى للقوات القائمة بتنفيذ المعركة والتى

---

(١) النمل : ٢٢.
(٢) العاديات: ١، ٢، ٣.
(٣) آل عمران ١٢١.
(٤) الأنفال: ١٥.

تدفع من خلاله للاشتباك بالعدو وقتاله لتحقيق المهمة المكلفة بها، ويتم ذلك من خلال النقاط التالية:

أ ـ اتخاذ القوات للتشكيل القتالى:

والتشكيل القتالى هو أوضاع القوات القتالية التى تحقق أفضل استخدام لها ولأسلحتها، وفى نفس الوقت تحقق سيطرة القيادة والتعاون والأمن وأقل خسائر ممكنة.... إلخ. ولا تخرج التشكيلات القتالية منذ خلق الله سبحانه وتعالى الأرض ومن عليها وحتى يومنا هذا عن التشكيل الخطى وتشكيل الصف سواء كان هذا الخط أو الصف عرضيا أو طوليا. ومن هذا التشكيل البسيط أخذت باقى التشكيلات مثل الخط المزدوج ورأس السهم ورأس السهم المعكوس..... إلخ. والقرآن الكريم عندما تناول هذه النقطة تناول الأساس، أى التشكيل البسيط وترك الفرعيات لاجتهادات البشر، حيث يقول المولى عز وجل: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ** ﴿٤﴾﴾ (١). والصف كما ورد بالآية الكريمة هو الخط سواء كان خط عرضى لتنفيذ القتال الفعلى أو خط طولى لتنفيذ تحرك أو مناورة تسبق القتال الفعلى.

والملاحظ هنا فى الآية الكريمة أن المولى عز وجل يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا وحيث لم تقتصر ألفاظ الآية الكريمة على تحديد الشكل أو التشكيل القتالى وما يرتبط به من مزايا مثل السيطرة وكثافة النيران..... إلخ. وانما انتقلت بنا إلى جوهر التشكيل القتالى (كأنهم بنيان مرصوص، وذلك الجوهر الذى لن يتحقق إلا بالعمل فى إطار تحقيق هدف واحد فى إطار بوتقة من التعاون بالتنسيق والتضحية ونكران الذات وكلها ضروريات لتحقيق النصر.

ب ـ السيطرة على عناصر التشكيل القتالى

وحيث يمكننا هنا أن نعرف السيطرة بأنها مجموعة الإجراءات التى يتخذها القائد وهيئة قيادته لضمان تحقيق النصر فى أسرع وقت وبأقل قدر ممكن من الخسائر ودعائم السيطرة هنا تنحصر فى نقطتين أساسيتين يمكن أن نستعرضها من خلال الآتى:

(١) أن يتمتع القائد العسكرى بالشخصية والعلم والكفاءة وفى هذا المجال يوضح لنا القرآن الكريم هذه النقطة فى قول المولى عز وجل: ﴿**وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾**﴾ (٢). وواضح من الآية الكريمة أن مؤهلات الملك أو القائد

(١) الصف: ٤.

(٢) البقرة ٢٤٧.

تنحصر فى بسطة العلم والجسم وهو ما يعبر عنه فى المجال العسكرى بشخصية وكفاءة القائد العسكرى.

(٢) الانضباط القائم على القناعة الذاتية بين القائد والمرءوس، وقد حدد القرآن الكريم أساس وصلب الانضباط العسكرى المطلوب فى قول المولى عز وجل: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ (١). وقوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴿٥٩﴾﴾(٢). وكما هو واضح فإن الآيتين الكريمتين تناولتا جوهر الانضباط العسكرى المطلوب لتحقيق السيطرة على القوات أثناء المعركة العسكرية.

(١) آل عمران ٣٢.

(٢) النساء: ٥٩.

المبحث الرابع

أسلوب تركيز جهود القوات

أولا : عام

١ ـ كما أوضحنا فى المعارك القتالية يكون هناك طرف مهاجم يلجأ إلى استخدام الأساليب التعرضية للقضاء على الطرف الآخر الذى يلجأ إلى استخدام الأساليب الدفاعية بصورة وقتية لإيقاف وإبطال مفعول العمليات التعرضية استعدادا للتحول إلى العمل التعرضى بعد إجبار الخصم على اتخاذ الأوضاع الدفاعية.

٢ ـ وكما سبق الإيضاح الطرف المهاجم القائم بالعمليات التعرضية يدير معاركه فوق سطح الأرض وتقتصر درجة استفادته من الأرض على شكل التضاريس الطبيعية أو الصناعية الموجودة فى مسرح العمليات، بينما الطرف المدافع يحقق استفادة أفضل نسبيا وخصوصا مع درجة التجهيز والإعداد الهندسى الذى قام به للشريحة التى يدافع عنها . ومن هنا فإن الطرف المهاجم غالبا ما يتعرض لخسائر بصورة أكبر من الطرف المدافع وأصبحت دواعى الاستمرار فى تنفيذ المعركة تتطلب منه تحقيق التفوق فى القوات سواء كان التفوق الكمى أو النوعى.

٣ ـ ولا تقتصر المواجهة بين الأطراف المتحاربة على ضروريات التفوق الكمى أو النوعى ولكن الأمر يتعدى ذلك إلى أسلوب وقرار القيادة فى إدارة المعركة والتسلسل يعتمد أساسًا على شكل المناورة بالقوات واتجاه تركيز الجهود الرئيسية لها.

٤ ويعتبر الاتجاه أو المكان الذى تم تركيز الجهود الرئيسية هو الاتجاه الذى يلعب دورًا كبيرًا فى الاستفادة من التفوق الموجود فى القوات وفى شكل المناورة التى تتم والتسلسل الذى يتبع لتدمير العدو، ومن هنا نجد أن هذا الاتجاه غالبا مايراعى فيه الآتى:

أ ـ أن أعلى نسبة مقارنة وتفوق للقوات سواء فى الأفراد أوالنيران والأسلحة تتواجد فى هذا الاتجاه نسبة إلى مقارنة القوات على طول مواجهة القتال.

ب ـ أن هذا الاتجاه يؤدى إلى أهداف ذات أهمية عسكرية وقتالية تساعد على سرعة تدمير العدو والإخلال بسيطرته على القوات ويتمشى ذلك مع التسلسل المخطط من قبل لتدمير العدو.

جـ ـ أن هذا الاتجاه الذى تم تركيز الجهود الرئيسية فيه يتحكم بدرجة كبيرة فى شكل المناورة المخططة أو المنفذة طبقا لشكل القتال.

ثانيا: اتجاهات تركيز القوات

١ ـ تركز جهود القوات كما سبق الإيضاح لتحقيق أعلى نسبة تفوق فى أماكن معينة يمكن خلالها تحقيق اختراق معين ومن خلال استغلال هذا الخرق يمكن تجزئة قوات العدو وإفقارها السيطرة وبالتالى تحقيق الأهداف المحددة.

٢ ـ والاتجاهات التى تركز فيها القوات تتنوع وتتعدد مع استمرار تطور الأسلحة والمعدات القتالية، فعلى سبيل المثال كان التركيز يتم فى الاتجاهات الأمامية. وبالمواجهة حينما كانت الأسلحة البيضاء هى العنصر السائد فى تسليح القوات المتجاربة قديما ونادراً ما كان يحدث تركيز فى غير هذا الاتجاه. ثم بعد ظهور المعدات الميكانيكية والأسلحة النارية أصبح تركيز القوات فى الأماكن الضعيفة على الأجناب وظهرت المناورات الواسعة وأصبحت إمكانية الالتفاف وتطويق القوات المعادية أمراً ممكنًا وسهلا. ثم مع ظهور الطائرات العمودية أمكن تركيز الجهود الرئيسية ونقلها إلى خلف مؤخرة العدو والحرمان من من إعادة تنظيم فلول القوات المتهارة والزج بها فى معركة أخرى.

٣ ـ وليس معنى أن هناك ارتباطا بين الاتجاهات التي تركز فيها القوات والتطور فى الأسلحة والمعدات أن الجديد الذى يظهر (أو الإمكانية الجديدة فى اختيار الاتجاهات التى لم تكن متاحة من قبل) يلغى ما كان موجودا من قبل، فعلى سبيل المثال ليس معنى أن هناك إمكانية الآن لتركيز الجهود على الأجناب أن التركيز بالمواجهة قد أصبح عديم الجدوى أو لايصلح للعمل به. بل العكس فالأساس فى تركيز الجهود هو بالمواجهة وما استجد بعد ذلك إضافات أخرى للعلم والفن العسكرى.

ثالثا ـ التناول القرآنى لاتجاهات تركيز الجهود:

١ ـ جاء التناول القرآنى لاتجاهات تركيز الجهد متماشيا مع العصر الذى نزل فيه القرآن، كما أن التناول اقتصر على الصورة أو الاتجاه السائد أو الاتجاه الأساسى لتركيز الجهود تحقيقا لخلود كتاب الديانة الخاتمة، فكما خاطب القرآن الكريم المسلمين وأمرهم بإعداد القوة ورباط الخيل التى كانت تمثل المعدة الرئيسية للجيوش فى ذلك القوات فإن القرآن الكريم قد تناول جانب تركيز الجهود للقوات المقاتلة من خلال الصورة السائدة فى هذا العصر، مع ملاحظة أن هذه الصورة صورة أساسية تعتبر جزءا من بديهيات علم وفن القتال.

٢ ـ التناول القرآن هنا جاء في قول المولى عز وجل: ﴿**والعاديات ضبحا ﴿١﴾ فالموريات قدحا ﴿٢﴾ فالمغيرات صبحا ﴿٣﴾ فأثرن به نقعا ﴿٤﴾ فوسطن به جمعا ﴿٥﴾**﴾[1] والآيات الثلاث الأول كما سبق الإيضاح تتناول شكل العملية التعرضية

(١) العاديات ١ ـ ٥.

وترتيب ونظام تنفيذها والتوقيت الملائم لذلك. ثم من خلال السرعة والسيطرة وتحت شدة الغبار الناتج عن حركة الخيل أو المعدات القتالية يتم تركيز الجهود الرئيسية فى منتصف أو وسط التجميع المعادى.

٣ ـ وهنا يجب أن نقف بالتحليل والدراسة أمام ما جاء فى التناول القرآنى لهذه النقطة للوصول إلى مجموعة من الحقائق العملية الهامة التى يمكن إيجازها فى الآتى:

أ ـ أن اتجاه تركيز الجهود الرئيسية للقوات المقاتلة يجب أن يكون مخفى تماما عن نظر العدو وأن يتم الاختراق منه من خلال مفاجأة قتالية مصاحبة لأعمال القتال المنفذ وهو ما عبر عنه القرآن الكريم فى قوله تعالى: (فأثرن به نقعا).

ب ـ أما بالنسبة لقول المولى عز وجل: (فوسطن به جمعا) فهو قول إعجازى يحدد إمكان تركيز الجهود وشكل المناورة التى يمكن أن تتبع لتحقيق ذلك ويمكن تفسير الآية الكريمة من وجهة نظر الاختراق بالمواجهة فيكون تركيز الجهود الرئيسية هنا بالمواجهة وفى المنتصف، أما إذا فسرناها من وجهة نظر الوسط العمقى حيث توسط الجمع فيكون تركيز الجهود مقبولا فى أى اتجاه بالمواجهة أو من على الأجناب.

حـ ـ مما سبق يتضح أن التناول القرآنى هنا تم من خلال ألفاظ كريمة تعطى وتغطى مفهومين هما:

(١) المفهوم الأول ويعطى اتجاه التركيز وهو اتجاه العمل بالمواجهة مع التركيز فى الوسط وكانت لغة الخطاب بها هنا مناسبة تماما لما هو معروف وذلك العصر.

(٢) المفهوم الثانى ويغطى هدف التركيز وإلى أين يصل؟ وكانت لغة الخطاب هنا مستقبلية ومناسبة تماما للتطور الذى سوف يحدث فى المستقبل وذلك أحد مظاهر أوجه الإعجاز القرآنى.

رابعًا : الخلاصة

مما سبق يتضح أن الآيات الخمس الأول من سورة العاديات تعطى صورة المعركة الهجومية بالكامل من حيث مبادة العمل وتوقيت التنفيذ وشكل القوات المستخدمة وأسلوب وكيفية تركيز الجهود الرئيسية للقوات.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفصل الثالث

القرآن الكريم يؤرخ للأنشطة العسكرية

المبحث الأول

القرآن الكريم يؤرخ لمعارك الإسلام الأولى

المبحث الثانى

القرآن الكريم يؤرخ لأعمال الأمن الداخلى

المبحث الأول

القرآن الكريم يؤرخ لمعارك الإسلام الأولى

أولا: عام

يعتبر علم التاريخ الإنسانى من العلوم ذات الأهمية البالغة، فهو ذاكرة البشرية التى تلعب دورا هاما فى استيعاب واكتساب الخبرات والتجارب الإنسانية، الأمر الذى يساعد فى عدم الوقوع فى أخطاء الآخرين وما يترتب على ذلك من إضاعة للوقت والجهد، وفى نفس الوقت الاستفادة من تجاربهم الناجحة اختصارا للجهد والوقت أيضا.

وعلم التاريخ يضع الحقائق كاملة مجردة أمام القارئ أو الدارس وهكذا يجب أن يكون دون ممارسة أى ضغط أو إيحاء لتغليب اتجاه على اتجاه أو رأى على آخر. ومن هنا اشترط فى عصرنا الحديث أن يكون المتصدى لكتابة التاريخ دارسا لعلم الاجتماع الذى يساعد كثيرا فى استنباط شكل الأحداث التاريخية الزمنية الغامضة أو التى تفتقد الوثائق التاريخية إضافة إلى النزعة الحيادية التى يجب على المؤرخ الالتزام بها فى تعرضه لسرد الأحداث التاريخية.

لذا فإن تاريخ المجتمعات البشرية هو العلم التاريخى الشامل، ومنه تتفرع علوم تاريخية متخصصة مثل التاريخ العسكرى والتاريخ الاقتصادى والتاريخ الطبى... إلخ.

والتاريخ هو سرد لأحداث تاريخية من خلال بعدين هامين: هما البعد الزمنى والبعد المكانى، وبغيرهما أو بغير أحدهما لا يكون التاريخ سليما أو صحيحا ويخرج السرد هنا عن نطاق العلم التاريخى. وتختلف وجهات نظر الدارسين للسرد التاريخى وللدروس المستفادة التى يمكن استنباطها من خلال قراءة معينة لأحداث تاريخية فى زمان ومكان معين.

مما سبق نتفق على أن علوم التاريخ سواء العام أو المتخصصة عبارة عن سرد محايد لأحداث معينة خلال مكان معين وزمن معين. وهذا السرد قابل للخلاف من وجهة نظر الدارسين والقراء.

ثانيا: القرآن الكريم يؤرخ لمعارك الإسلام الأولى

تناول الكتاب الكريم معارك الإسلام الأولى تحت قيادة الرسول القائد ﷺ بصورة مخالفة تماما للأسلوب التاريخى الذى أوضحناه فى مقدمة هذا الفصل من الكتاب. وهذا شىء طبيعى ومنطقى، فالكتاب الكريم ليس كتابا علميا أو كتابا تاريخيا وإنما هو منهاج هداية وضعه الخالق سبحانه وتعالى للمخلوق إلى يوم قيام الساعة. لذلك كان لابد أن يكون هناك اختلاف جوهرى فى أسلوب التناول الإلهى عن أسلوب التناول البشرى. ويمكن أن نستعرض الأسلوب القرآنى فى التاريخ لمعارك الإسلام الأولى من خلال الآتى بعد.

١ - إن الأسلوب القرآنى ابتعد تماما عن أسلوب السرد التاريخى كما هو معروف وانتقل مباشرة إلى وجهات النظر أو ما يعرف بالدروس المستفادة بغية تحديد نقاط القوة التى يجب الاستفادة منها ونقاط الضعف التى يجب الابتعاد عنها أو علاجها. ومن هنا يمكننا القول أن الكتاب الكريم قد تجاوز الثوابت التاريخية ممثلة فى الأحداث داخل إطار الزمان والمكان إلى المتغيرات التاريخية ممثلة فى الشق الخاص بالرؤية التاريخية. وهذا التناول القرآنى العظيم يتفق تماما مع الظروف التى كانت تحيط بالمجتمع الإسلامى الوليد فى المدينة والذى كانت تحيط به الأخطار من كل جانب، وكان الأمر هنا يستدعى تدخل السماء لتقدم الدروس المستفادة فى إطار صورة تتسم بالحزم والسرعة الملائمة لظروف البيئة وهى صورة كان المجتمع الإسلامى عاجز عن الوصول إليها بحكم الافتقاد للخبرة العسكرية، إضافة إلى أن الطبائع البشرية صعب أن تتفق أمام الرؤية التاريخية.

ولمزيد من الإيضاح يمكننا القول أن القرآن الكريم لم يتناول معركة بدر بالسرد مثل ما جاءت فى تاريخ الأمم للطبرى على سبيل المثال، فالتناول القرآنى كان من خلال عدد من الآيات يمكن أن نقف عند أحدهم فى قول المولى عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾[1].

ففى الآية الكريمة السابقة درس عسكرى هام يضع حدا فاصلا للجدل الدائر حول مفهوم مبدأ الحشد وخصوصا الحشد الكمى أو العددى، بل وتضع مفهوما آخر للحشد وهو ما عرف بعد ذلك بالحشد النوعى والمعنوى، وأصبح مبدأ الحشد وهو مبدأ هام من مبادئ الحرب الرئيسية ذو شقين: الأول حشد عددى أو كمى، والثانى: حشد نوعى أو معنوى. وهذا الحشد النوعى لم يصل إليه الفكر العسكرى الإنسانى إلا بعد معركة بدر والتأريخ القرآنى لها من خلال عدد من الآيات الكريمة.

---

(١) الأنفال: ٦٥.

٢ ـ ولأن النشاط العسكرى الإنسانى من أصعب وأشق الأنشطة البشرية على النفس البشرية ولأن الدروس المستفادة من هذا النشاط بطيئة الاستيعاب وصعبة التعلم. لذلك نجد أن القرآن الكريم عندما أرخ لمعارك المصطفى ﷺ ربط بين آيات تلك المعارك وبين أقوى ما فى النفس البشرية وهو الإيمان أو العقيدة. ويمكن أن نستوضح هذا المفهوم من خلال قول المولى عز وجل: ﴿وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾[1]. ففى الآية الكريمة درس عسكرى هام وإن كان قد جاء بصورة ضمنية وهو يتعلق بأسلوب استنفار القوات ورفع درجة استعدادها القتالى. ويلاحظ هنا أن هذا الدرس تم ربطه بحادثة الصحابه الثلاثة الذين تخلفوا عند الخروج مع القوات المسلمة فى معركة تبوك وهى آخر المعارك التى قادها المصطفى ﷺ قبل انتقاله إلى الرفيق الأعلى. والربط هنا بين الدرس العسكرى والحادثة يوضح لنا مدى حجم المعاناة والعذاب الذى يمكن أن يعيش فيه المسلم الحق الذى يتخلف عن تلبية نداء الله والرسول لملاقاة أعداء الله. وإذا كان المولى سبحانه وتعالى قد تاب على هؤلاء الصحابة الثلاثة بعد ما ندموا أشد الندم وذاقوا الأمرين على ذلك التخلف. فمن يضمن لنا اليوم توبة مثلها لمن يتخلف عن تلبية النداء. والعياذ بالله.

٣ ـ والتأريخ القرآنى الكريم لمعارك الرسول القائد ﷺ من خلال الدروس المستفادة من هذه المعارك والمرتبطة ارتباطا وثيقا بالعقيدة والإيمان لم يكن تأريخا مرتبا بمعنى أن الدروس المستفادة من معركة معينة أنزلها المولى عز وجل خلال أكثر من آية فى أكثر من سورة من سور القرآن الكريم. وهذا التأريخ بهذه الصورة كانت له مبرراته وأسبابه المنطقية والتى يمكن إيضاح بعضها فى الآتى بعد:

أ ـ أن نزول القرآن الكريم على المصطفى ﷺ كان نزولا مرتبطا بالأحداث التى يمر بها المجتمع الإسلامى الوليد وبالتساؤلات والاستفسارات والإيضاحات التى كان يبحث عن إجابة لها المسلمون الأوائل، وحيث إن كلا من الأحداث والاستفسارات كانت تمس جميع الانشطة الإنسانية ومن ضمنها الأحداث العسكرية. لذا كان من الطبيعى والمنطقى ألا يكون هناك ترتيبا معينا لهذا الأحداث أو هذه الاستفسارات.

ب ـ أنه فيما يخص المعارك العسكرية فإن المولى عز وجل كان ينبئ ويذكر رسوله ﷺ بالدروس المستفادة من المعارك السابقة حتى يمكن الاستفادة منها ومراعاتها أثناء تنفيذ المعارك المقبلة. وهذا الأسلوب الإلهى فى وضع الدروس أمام الجيش المسلم لعب دورا كبيرا فى عدم ترتيب آيات المعركة الواحدة لذلك نجد معركة مثل معركة بدر ذكرت فى عدة آيات متفرقة فى عدة سور.

---

(١) التوبة ١١٨.

جـ ـ إن الترتيب المنطقى هو أحد متطلبات الكتب العلمية أو التاريخية. . . .إلخ. أما الكتاب الإلهى الخالد إلى يوم قيام الساعة فكان لابد أن يخضع فى سياقه لإرادة المولى عز وجل، حتى يمكن أن يقرأ مئات بل آلاف المرات دون أن يشعر القارئ المسلم العابد بأى ملل، بل بالمزيد إلى القراءة مرات ومرات .

٤ ـ والدروس المستفادة من المعارك العسكرية التى قادها المصطفى (صلى الله عليه وسلم) والتى أرخ بها القرآن الكريم للعسكرية الإسلامية أستمدت صفة الدوام والخلود من القرآن الكريم، وهذا شىء منطقى وطبيعى على الرغم من أن هذه الآيات قد ارتبطت بأحداث معينة لها البعدين الزمنى والمكانى للتاريخ إلا أن ماوراء الحدث أو الدرس المستنبط منه هو الذى أخذ صفة الدوام والخلود، وبالتالى اتسعت دائرة المعانى التى يمكن أن تستخرج من هذه الآيات، وأصبحت هذه الخاصية فى التناول القرآنى أحد أوجه الإعجاز القرآنى الكريم.

ثالثا: المعارك التى أرخ لها القرآن الكريم

١ ـ قبل أن ننتقل إلى المعارك التى أرخ لها القرآن الكريم من المهم هنا أن نتفق على شكل هذه المعارك وأنواعها[١]، فالقرآن الكريم تناول الكثير من الأنشطة العسكرية التى تمت فى عهد المصطفى ﷺ وهذه الأنشطة يمكن أن تقسم إلى الآتى بعد.

أ ـ أعمال وأنشطة عسكرية تقليدية متمثلة فى المهام والواجبات الروتينية اليومية وتشمل إجراءات الأمن القتالى والاستعداد القتالى والتدريب. . . .إلخ. ومن أمثلة هذه الأنشطة سرية حمزة بن عبد المطلب المكونة من ثلاثين مسلما وقد دفعها الرسول ﷺ فى شهر رمضان من العام الأول الهجرى، وكذلك السرية التى قادها الرسول ﷺ فى شهر جمادى الأولى من السنة الثانية الهجرية حيث خرج ﷺ إلى العشيرة من بطن ينبع لجمع المعلومات ورصد التحركات، وقد أقام الرسول هناك شهرا تقريبا. وهذا النوع من النشاط لم يتعرض له القرآن الكريم، وعلى أساس أن أغلبية هذا النشاط يرتبط ارتباطا وثيقا بالفطره الانسانية؛ إضافه إلى أن التطبيق الميدانى لهذا النوع من النشاط يعتبر تطبيقا فرعيا يخدم التطبيق الميدانى الرئيسى وهو المعركة العسكرية القتالية.

ب ـ أعمال وأنشطة عسكرية خاصة متمثلة فى المهام التى تنفذها القوة المسلحة لصالح المجتمع بهدف استغلال كافة الإمكانيات المتيسرة والاستفادة منها بصورة جيدة. وهذه الأنشطة أيضا لم يتعرض لها القرآن الكريم لنفس المبررات التى تم إيضاحها فى البند (أ)

(١) يمكن الرجوع إلى كتاب إعداد الجيش فى عهد الرسول ﷺ للمؤلف، إصدار دار الفكر العربى.

جـ ـ أعمال وأنشطة عسكرية خاصة بالأمن الداخلى للمجتمع المسلم متمثلة فى جميع الإجراءات التى تهدف إلى المحافظة على وحدة وسلامة المجتمع الإسلامى مثل حصار وطرد بنى قينقاع من المدينة بعد أن أساءوا إلى حقوق الجيرة وسخروا من امرأة عربية بكشف سوأتها وأيضا قتال يهود بنى قريظة بعد الدور القذر الذى لعبوه فى معركة الخندق وخيانتهم للرسول ﷺ وقيامهم بالانضمام إلى الجانب المشرك وفى ذلك تناول القرآن الكريم هذا النشاط فى قول المولى عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٢﴾﴾[1].

د ـ الأعمال والأنشطة العسكرية القتالية متمثلة فى المعارك التى خاضها الجيش المسلم تحت قيادة المصطفى ﷺ وقد تناول القرآن الكريم هذه الأعمال بصورة يمكن أن نقول معها أن القرآن الكريم قد أرخ لهذه المعارك.

٢ ـ وإذا انتقلنا إلى المعارك فى عهد الرسول ﷺ والتى هى أساس التأريخ القرآنى للعسكرية الإسلامية الأولى لوجدنا أن هذه المعارك قد نفذت من خلال عدة مراحل يمكن إيضاحها من خلال الآتى بعد.

أ ـ المرحلة الأولى:

وهى المرحلة الدفاعية والتى تزامنت مع ميلاد المجتمع المسلم فى المدينة المنورة وحيث كان الجيش المسلم قليل العدد وقليل الخبرة القتالية ومعارك هذه المرحلة هى معركة بدر ـ معركة أحد ـ معركة الأحزاب.

ب ـ مرحلة الإعداد الأولى:

وهى مرحلة كان الغرض منها إعداد الجيش المسلم لخوض المعارك التعرضية والهجومية وتمت خلال هذه المرحلة معركة مؤتة.

جـ ـ المرحلة الثانية

وهى المرحلة التعرضية او الهجومية التى قام الجيش المسلم خلالها بغرض سيطرته على شبه الجزيرة العربية. ومعارك هذه المرحلة هى معركة فتح مكة ومعركة وادى حنين.

د ـ مرحلة إعداد ثانية

وهى مرحلة كان الغرض منها إعداد الجيش المسلم لخوض المعارك التعرضية الصعبة، وتمت خلال هذه المرحلة معركة تبوك التى كانت آخر معارك المصطفى ﷺ حيث انتقل بعدها إلى الرفيق الأعلى تاركا الجيش المسلم جاهزا لأداء المهام المنوط بها.

---

(١) الحشر: ٢.

٣ ـ ولقد أرخ القرآن الكريم لجميع المعارك التى تمت فى عهد الرسول القائد ﷺ عدا معركة واحدة وهى معركة مؤتة ولذلك أسباب عديده من المفضل أن تقف أمامها بالدراسه من خلال الآتى بعد.

أ ـ إن معركة مؤتة هى المعركة الوحيدة فى عهد المصطفى ﷺ التى لم يتول فيها الرسول قيادة الجيش بل عين ثلاثة من القادة لأنه كان يعلم أن هؤلاء القادة الثلاثة[1] سوف يستشهدون وأن استشهادهم يمثل المحور الأساسى فى عملية الإعداد والتدريب، وذلك لتطوير مفهوم الجهاد من تضحية بالنفس والمال دفاعا عن العرض والأرض كما تم فى المعارك الدفاعية التى سبقت مؤته (بدر ـ أحد ـ الخندق) إلى تضحية فى سبيل الله لنشر وإعلاء كلمة المولى عز وجل فى أرجاء المعمورة.

ب ـ إن معركة مؤته بأحداثها الغريبة سوف يؤرخ لها التاريخ الإسلامى، حيث إنها معركة ذات متناقضات كثيرة بدءا من مقارنة القوات بين الطرفين وأساليب القتال المتبعة فيها من الطرفين، وانتهاء بأسلوب الاستقبال الذى تم للجيش المسلم العائد إلى المدينة. وللوقوف على حجم التناقض يكفى القول أن الصبية الذين خرجوا لاستقبال الجيش المسلم كانوا يرددون (يا فرار فى سبيل الله)، بينما كان المصطفى ﷺ وهو الذى يعلم حقيقة هذه المعركة والغرض منها يرد فيقول: (بل هم الكرار فى سبيل الله) وهنا يثار تساؤل هام. هل هذه المعركة الغامضة على المجتمع الإسلامى فى ذلك الوقت يؤرخ لها القرآن الكريم؟. لقد اطمئن الرسول القائد ﷺ على إعداد وتدريب جيشه للعمل التعرضى ومن خلال معركة لا يمكن أن تتكرر فى التاريخ العسكرى البشرى منذ خلق الله تعالى الأرض وإلى قيام الساعة، والأحداث الغامضة لها تركت للتاريخ الإنسانى لأن غموض الحدث قد يتطلب فترة زمنية أطول وأحداث أخرى متتالية تساعد على الدراسة والتحليل للوصول إلى مغزى ذلك الحدث الغامض، وهو ما حدث بالنسبة لمعركة مؤتة حيث ساعدت المعارك التالية مثل فتح مكة ووادى حنين فى تفسير لماذا كانت معركة مؤته ولماذا كانت أحداثها الغريبة؟

٤ ـ وإذا انتقلنا إلى المعارك التى أرخ لها القرآن الكريم فسوف نقف أمامها من خلال الآتى بعد .

أ ـ معركة بدر

(١) تعتبر معركة بدر أولى معارك المجتمع الإسلامى الوليد بالمدينة المنورة وما قبلها من أنشطة عسكرية أخرى تصنف فى إطار التصنيف العلمى الذى تعرضنا له من

(١) القادة الثلاثة هم زيد بن حارثة، وجعفر بن أبى طالب، وعبدالله بن رواحة.

قبل فى هذا الفصل. وعن هذه المعركة يقول عز من قائل: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾[1].

(٢) ويتسم الموقف السياسى والعسكرى الذى أدى إلى نشوب القتال بالغرابة حيث كان تحرك المسلمين لملاقاة قافلة أبى سفيان العائدة من الشام للاستيلاء على ما بها من بضائع كنوع من التعويض عن ممتلكاتهم وأموالهم التى تركوها فى مكة بعد أن هاجروا إلى المدينة. وعلى الرغم من نجاح أبى سفيان فى خداع المسلمين وتغييره لخط سير القافلة إلا أن نداء الاستغاثة الذى أرسله إلى مكة كان السبب فى حشد الجيش الكافر وتصميم قيادات هذا الجيش على خوض معركة يكون هدفها الرئيسى هو القضاء على المجتمع الإسلامى الوليد بالمدينة المنورة. ومن هنا بدأت المعركة وسط تلك الأحداث الغريبة حيث يقول المولى عز وجل ﴿إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾[2].

(٣) وتعتبر معركة بدر معركة تكريم لكل من شارك فيها من الجانب المسلم فقد طهر الله سبحانه وتعالى أهل بدر تطهيرا إلهيا عظيما على ما قدموا من أرواح ودماء فى سبيل نصرة دين الله، وفى ذلك يقول المولى عز وجل ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾﴾[3]. ويمكن لنا فى هذا المقام أن نستحضر قصة حاطب ابن أبى بلتعة الذى سامحه الرسول ﷺ أثناء التحضير والتجهيز والإعداد لمعركة فتح مكة على الرغم من قيامه بإرسال كتاب إلى قريش يخبرهم فيه بنية الرسول للقيام بفتح مكة. وقال الرسول الكريم ﷺ فى معرض تسامحه الكريم أنه (يقصد حاطب بن أبى بلتعة) من شهدوا بدرا.

(٤) وفى معركة بدر نجد ان القتال دار بين طرفين المقارنه بينهما كبيرة حيث كان الجيش الكافر يبلغ أربعة أضعاف الجيش المسلم. والمعروف أن المعارك فى ذلك العصر كانت تعتمد بالدرجة الأولى على التفوق العددى الكبير فى القوات حتى يمكن تحقيق النصر، وفى هذا السياق غير القرآن الكريم هذا المفهوم عندما أرخ لهذه المعركة فى قول المولى عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ

---

(١) آل عمران: ١٢٣.
(٢) الأنفال: ٤٢.
(٣) الأنفال: ١١، ١٢.

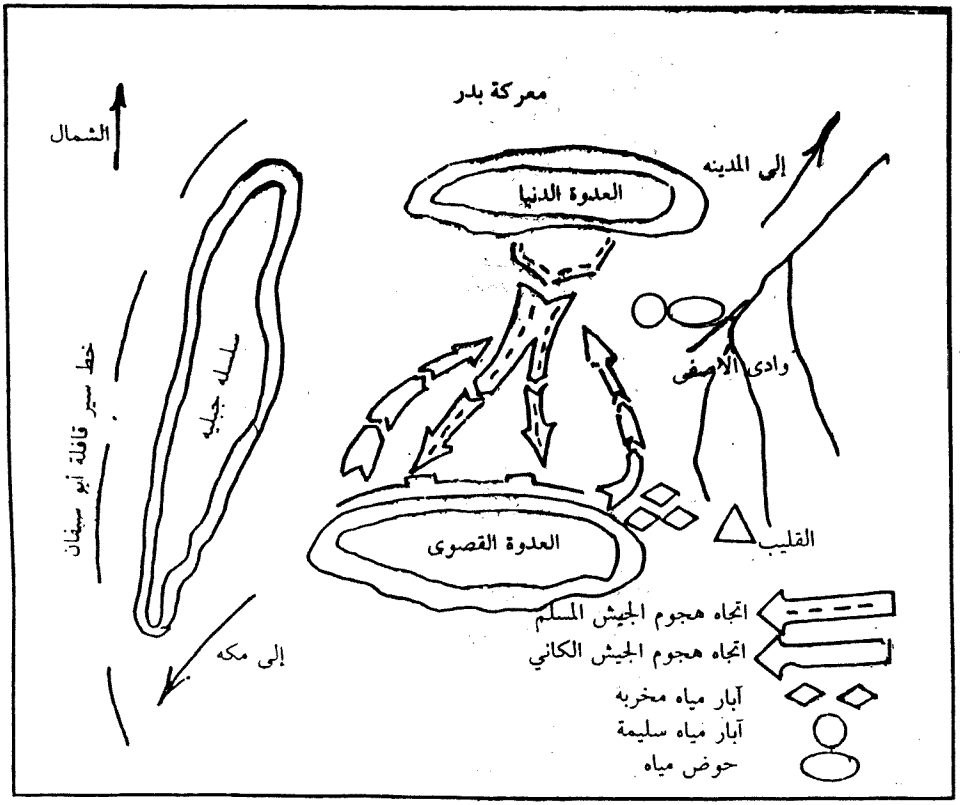

يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ (١)

(٥) وبناء على البند الموضح بعاليه كان لابد أن يكون هناك مؤثر خارجى للتغلب على التفوق العددى الذى تتمتع به القوات المشركة. وعندما يكون هذا المؤثر إلهيا ويكون الدعم السماوى هو الفيصل فإن موازين البشر تصبح كأن لم تكن، مصداقا لقول المولى عز وجل: **﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾﴾** (٢).

(٦) النتائج التى ترتبت على هذه المعركة

- إن المجتمع الإسلامى الوليد وعلى الرغم من صغر عمره فإنه قد أصبح حقيقة واقعة بل وأصبح لهذا المجتمع سيفا ودرعا يدافع عنه ويذود عن أرضه وعرضه وماله.

- إن القوات المسلمه فى هذه المعركة قد أصبحت القدوة والمثل فى أسلوب العمل

(١) الأنفال: ٦٥.
(٢) الأنفال: ١٢٤، ١٢٥.

العسكرى الصحيح والذى يتمثل فى إمكانية تحقيق هدف ذو شقين. الشق الأول منه دينوى يتمثل فى تحقيق النصر وهزيمة الطرف المعادى والشق الآخر سماوى ويسعى إلى ابتغاء مرضاة الله والفوز بما وعد سبحانه وتعالى؛ مصداقا لقوله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾ (١).

- وفى هذه المعركة ظهر الحشد النوعى والمعنوى أو العقائدى لأول مرة فى المعارك العسكرية. ومع نجاح الجيوش الإسلامية فى معاركها التالية أصبح هذا المبدأ حقيقة واقعة ووصل إلينا فى عصرنا الحاضر تحت مسمى الحشد النوعى، وعلى أساس أن الحشد العددى هو الحشد الكمى.

- كما وضعت هذه المعركة أول أسس التفاوض للتصرف فى أسرى الحرب وعلى وجه التحديد فقد حددت هذه المعركة التوقيت المناسب لاستبدال الأسرى ومجالات الاستفادة منهم، مصداقا لقول المولى عز وجل ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾﴾ (٢).

- وعلى الرغم من أن هذه المعركة طبق فيها أساليب قتال متطورة مثل بدء الجيش المسلم للمعركة بأوضاع دفاعية؛ لكسر الفارق فى المقارنه العددية مع القوات المشركة ثم التحول بعد ذلك للهجوم المضاد أو المعاكس؛ لاستكمال تدمير الجيش المشرك وأيضا الأساليب التى اتبعت من قبل المصطفى ﷺ للسيطرة على أعمال قتال القوات المسلمة إلا أن القرآن الكريم لم يتناول هذه الأساليب على أساس أنها أساليب قتال وقواعد للصراع البشرى قابلة للاجتهاد والتطوير من زمن لآخر.

ب - معركة أحد

(١) تعتبر هذه المعركة من وجهة النظر القتالية للجيش المسلم معركة دفاعية بحتة، مصداقا لقول المولى عز وجل: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾﴾ (٣). واتخاذ الدفاع كأسلوب قتالى فى هذه المعركة يعتبر الأسلوب الأمثل نظرا للقلة العددية التى كان يعانى منها الجيش المسلم. إضافه إلى أن ذلك كان يخضع للتخطيط الموضوع من قبل المصطفى ﷺ لاستخدام قواته المسلحة.

(٢) وبقدر ما كانت معركة بدر تتسم بغرابة الموقف السياسى والعسكرى كانت معركة أحد تتسم بالغرابة فى أهدافها من جانب الطرفين المتصارعين وخصوصا الجانب

(١) التوبة: ١١١.
(٢) الأنفال ٦٧.
(٣) آل عمران ١٢١.

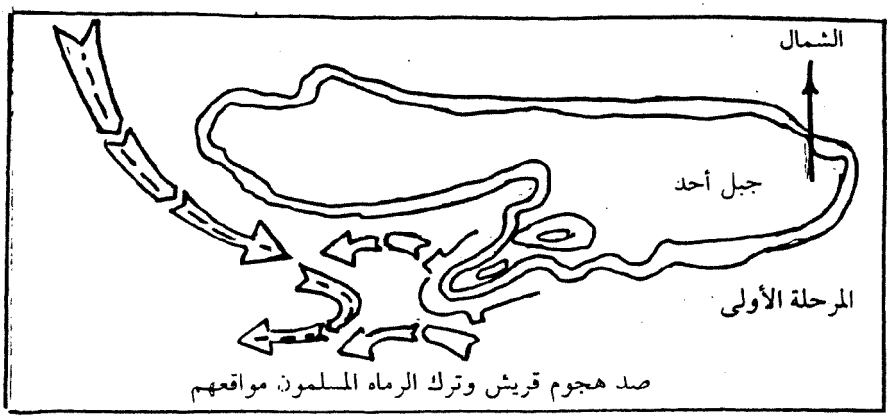

صد هجوم قريش وترك الرماة المسلمون مواقعهم

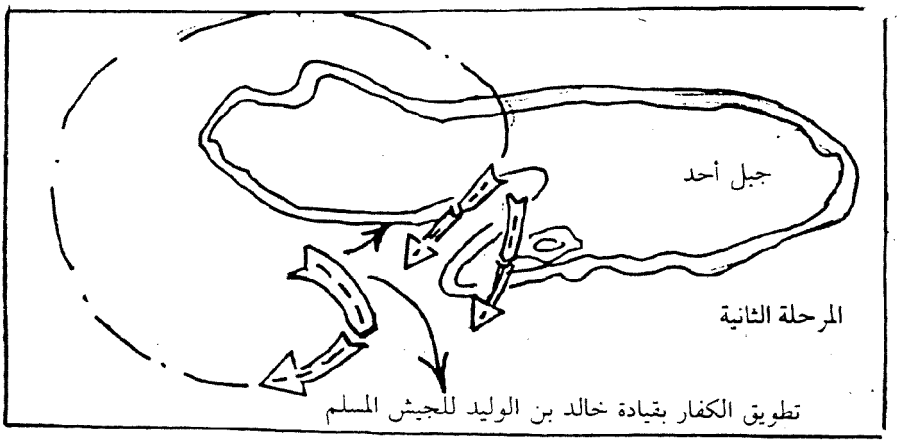

تطويق الكفار بقيادة خالد بن الوليد للجيش المسلم

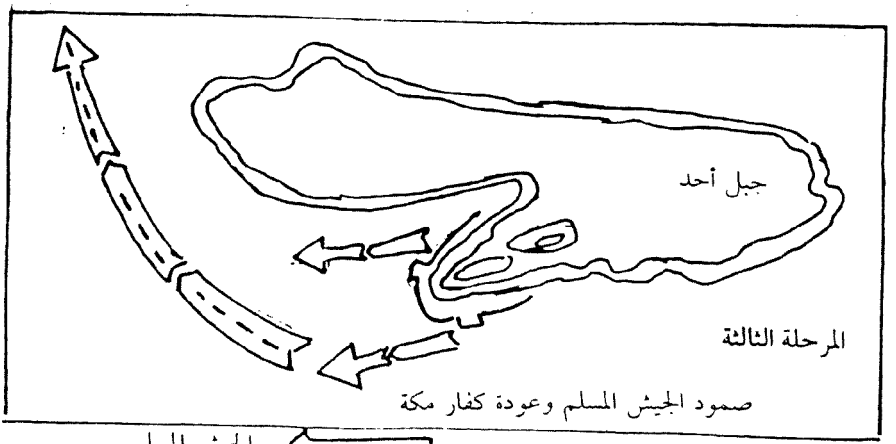

صمود الجيش المسلم وعودة كفار مكة

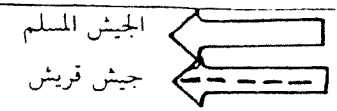

معركة أحد

المنتصر. ومع تلك الغـرابة يقف أى محلل عسكرى أمام هذه المعركة فـى موقف الحيرة والتردد، وحيث يقوده هذا الموقف إلى قناعة وحيدة بأن المشـيئة الإلهية كانت لها الدور الأول والأخير فى رسم تلك الأهداف، ويمكن لنا أن نستوضح ذلك من خلال الآتى:

ـ إن الجيش المسلم استطاع أن يمتص هجـوم الجيش الكافر فى المرحلة الأولى من المعركـة وأن ينزل به الخسائر. ثم حدث أن تركت مـجموعة الرمـاة مقاعد القـتال التى حددها لهم المصطفى ﷺ وبدأت المعركة فى التحـول مع ضياع الهدف التكتيكى للجيش المسلم فى خـلال هذه المرحلة، وحيث نجح الجـيش المشرك فى تعديل أوضـاعه والقـيام بعملية التـفاف خلال المرحلة الثانية بقـيادة خالد بن الوليد تمكن معـها من فرض إرادته وحسم المعركة لمصالحه.

ـ ثم تتجسد الغرابة بعد ذلك فى تصرف الجيش المشرك الذى اتجه عائدا إلى مكة، وحيث أراد المولى عـز وجل أن يكون هدف هذا الجيش هدفـا تكتيكيـا فقد يتـمثل فى الانتقام لما حدث فى معركة بدر، بينما الهدف المنطقى والإستراتيجى بلغة العصر هنا كان يتطلب أن يتجه الجيش المشرك صوب المدينة للقـضاء على المجتمع الإسلامى الوليد بها، وهو مجتمع كان فى ذلك الوقت فى مـراحل نموه الأولى، وكان يضم بين جنباته فئات غير مـسلمه كانت على استـعداد لمعاونة جيش قـريش فى القضاء على المجتـمع الجديد بالمدينة المنورة وهو ما حدث بعد ذلك فى المعارك التالية.

ـ وتشتـد الغرابة بالنسبة لهـذه المعركة ليس فقط بالنسـبة لتصرف الجـيش المشرك وخصـوصا بعد مـا تسيد المعـركة وفرض إرادته، ولكن لأن هذا الجـيش كان يضم بين قادته من هم على مسـتوى عسكرى عال مثل خالد بن الوليد ـ عـلى سبيل المثال ـ وهو قائد عـسكرى اثبتت مـعاركـه التى خاضهـا بعد ذلك عن مـدى ما يتمـتع به من رؤية استراتيجية صحيحة تتناقض تماما مع التصرف الذى تصرفه الجيش المشرك الذى كان تحت قيادته فى معركة أحد.

(٣) إن هذه المعركة وبأحداثها الغريبة التى تمت لايملك المرء أمامها إلا أن مارددده المصطفى ﷺ عن رب العزة وهو خارج من بيته فى مكة للهـجرة إلى المدينة وحول بيته فتيان قريش الذين جاءوا لقتله ﴿**وجعلنا من بين أيديهم سدًا ومن خلفهم سدًا فأغشيناهم فهم لا يبصرون** ﴿٩﴾﴾ [1] نعم لقد أغشى الله سبحانه وتعالى الجيش المشرك فى هذه المعركة فأصابه عمى البصر والبصيرة فأخـذتهم نشوة الإنتقام لما حدث فى بدر بعيدا عما يجب أن يتصرفوا وانصرفوا عائدين من حيث أتوا.

---

(١) يس ٩.

(٤) النتائج التى ترتبت على هذه المعركة

ـ كانت هذه المعركة درس إلهى من المولى عز وجل للجيش المسلم بضرورة الأخذ بالأسباب مصداقا لقوله تعالى: ﴿**وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾**﴾[1]. إن الأخذ بما أمر الله به هو الطريق الوحيد إلى كسب رضائه سبحانه وتعالى وتحقيق وعده بالنصر المبين، أما السعى إلى المغانم ومقاصد الدنيا فهو عرض زائل وعمل يفتقد إلى النية الخالصة لوجه الله. والأخذ بالأسباب التى دعت إليها هذه المعركة يتلخص فى ضرورة العمل فى إطار الأطر العسكرية الصحيحة من انتظام والتزام وانضباط وتدريب وإجادة لمتطلبات ومهارات القتال. وكلها أمور هامة تمثل أركان المعركة، ومن الصعب العمل أو القتال بدونها. فإذا تمت كل هذه الأمور داخل بوتقة الإيمان وطهارة المقصد كان وعد الحق حقًا وصدقًا.

ـ ضرورة أن يكون للمعركة هدف إستراتيجى يتم تحقيقه من خلال مجموعة أهداف تكتيكية أو مرحلية. وبغير أن تكون الأهداف التكتيكية أو المرحلية فى خدمة الهدف الإستراتيجى فإن الغرض من المعركة يصبح لامعنى له. فالجيش المسلم عندما تنازل عن هدفه التكتيكى فى المرحلة الأولى لم يستطع الوصول إلى هدفه الإستراتيجى من المعركة. أما الجيش المشرك فلم يكن له هدف إستراتيجى محدد وكانت أهدافه المرحلية لاتصب فى هدف نهائى. وبالتالى لم يكن للمعركة من وجهة النظر العلمية حصاد سياسى أو عسكرى يتناسب مع الجهد والمشقة المبذولة فيها.

حـ ـ معركة الأحزاب (الخندق)

(١) تعتبر هذه المعركة آخر معارك المرحلة الدفاعية التى نفذها الجيش المسلم دفاعًا عن المجتمع الإسلامى الوليد بالمدينة المنورة. وذلك قبل أن يتحول الجيش المسلم إلى المرحلة التعرضية داخل شبه الجزيرة العربية. ولهذه المعركة مكانة قرآنية عظيمة فهناك سورة قرآنية كاملة تحمل اسمها وهى سورة الأحزاب. ولعل التكريم القرآنى لتلك المعركة مرجعه أنها المعركة التى بعدها استبدل الجيش المسلم الدرع بالسيف ومعارك الثبات إلى معارك الحركة. وقتال الصمود والعناد إلى قتال المبادأة والمناورة.

(٢) ورغم ما اتصفت به هذه المعركة من صعوبة وقسوة إلا أنها خلت من الاشتباكات المسلحة، وكان مرجع الصعوبة والقسوة هنا هو ما قامت به العناصر غير المسلمة داخل المجتمع الإسلامى من الكشف عن وجهها القبيح وإعلان معارضة الانتماء للمجتمع الإسلامى. الأمر الذى أصبح معه الجيش المسلم ذات جبهة داخلية وعمق استراتيجى غير آمن، ويصور لنا القرآن الكريم هذه النقطة فى قول المولى عز وجل:

﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾ (١).

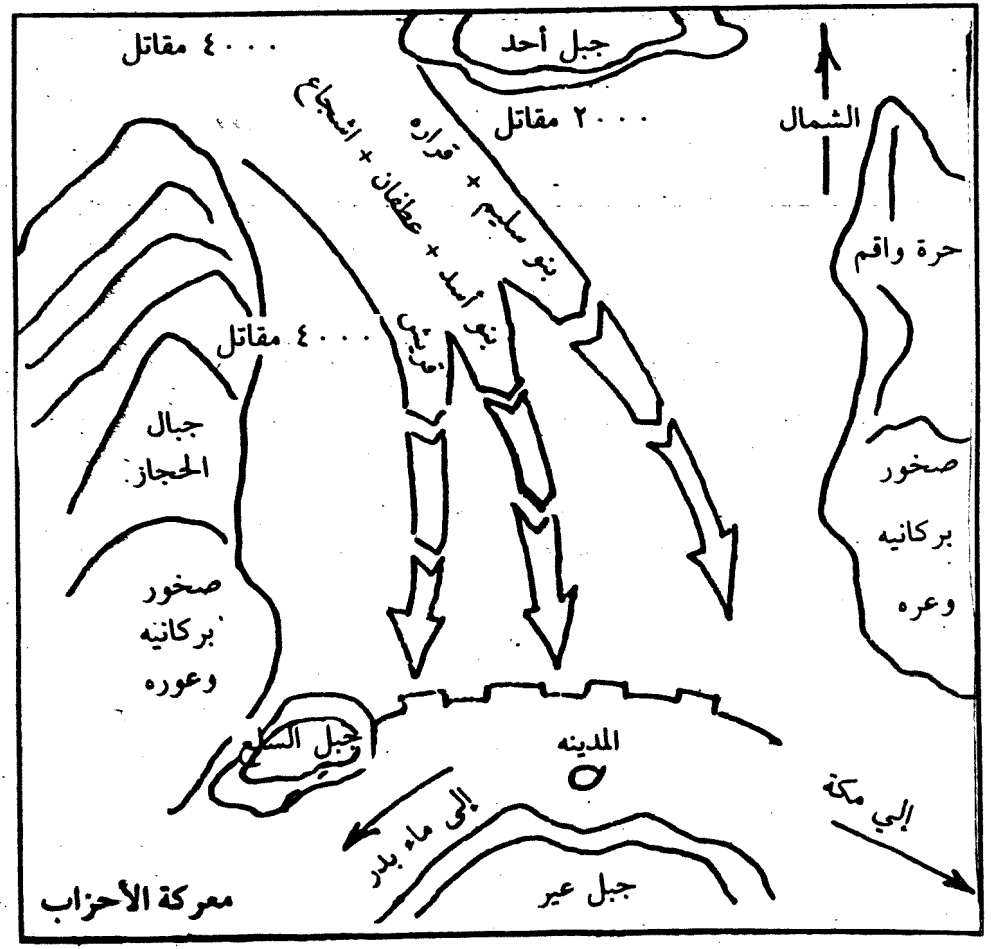

(١) الأحزاب: ١٢ ـ ١٧.

(ب) ولعل أبرز ما يلفت نظر الرجل العسكرى عند تحليله لهذه المعركة هو كيفية تحقيق الإرادة القتالية الصلبة واستمرار تماسك العزيمة والإصرار لدى الجيش المسلم حتى أذن الله سبحانه وتعالى بنصر عباده المؤمنين، فالمعروف فى المجال العسكرى أن الصورة الدفاعية للمعركة هى صورة وقتية يمكن لها أن تتداعى وتنهار أمام المحاولات الهجومية المتعددة ولابد للمدافع من البحث عن مخرج لمأزق الدفاع الذى يتواجد فيه بالتحول إلى العمليات التعرضية المضادة أو المعاكسة. ولذلك كان هناك قناعة لدى العسكريين أنه ليس هناك دفاع لم يخترق، وأمام الصعوبات الكثيرة والجمه التى تعرض لها الجيش المسلم فى هذه المعركة ومع استمرار الصمود وقوة الإرادة كانت جائزه السماء التى أجبرت الجيش المشرك على الإنسحاب والعودة من حيث أتى، ويظهر ذلك واضحا فى قول المولى عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾[1]

(٤) النتائج التى ترتبت على هذه المعركة

- إن القوة التى تتمتع بها الجيوش والتنظيمات القتالية لا تنبع بالدرجة الأولى من حجم التعداد ونوعية السلاح المتوفر ومدى التدريب والكفاءه القتالية فقط، ولكن أيضا على قوة وتماسك الجبهة الداخلية للمجتمع الذى خرجت منه القوة القتالية، وهو ماتداركه المصطفى ﷺ بعد معركة الأحزاب وقام بطرد القبائل اليهودية من المدينة، وتطبيق حكم السماء عليها. وكانت تلك الخطوة العظيمة أحد الدعائم الأساسية فى إمكانية تحول المجتمع والجيش المسلم إلى مرحلة التعرض والهجوم.

- إن النشاط العسكرى الإنسانى هو أكثر الأنشطة الإنسانية ارتباطا بمجموعة من السمات الشخصية مثل الشجاعة والإصرار والعناد والتضحية..... إلخ. وهذه السمات الشخصية من الضرورى أن تسخر لصالح العمل القتالى. لذلك نجد أن هناك العديد من المدارس العسكرية التى تعتبر المحافظة على الروح المعنوية العالية مبدأ هاما من مبادئ الحرب. بل ووصل الأمر بهذه المدارس إلى إنشاء إدارات خاصة بالتوجية والإعداد المعنوى للمقاتل. وإذا كان الصدق العلمى يتطلب منا دائما أن ننسب الفضل لأهله والعلم لأصحابه فإن الأمر هنا يتطلب قول حق وصدق يتلخص فى أن الجيش المسلم فى هذه المعركة هو الذى أرسى أهمية الروح المعنوية كمبدأ حرب وأعطى الأسس وقواعد الدفاع الإصرار والعناد فى القتال لمنع العدو من تحقيق أهدافه. والصدق العلمى فى هذه

(١) الأحزاب ٩ - ١١.

النقطة بالذات قائم على أحداث المعركة التى تمت فى زمن وعهد كان النصر العسكرى يعتمد فيه بالدرجة الأولى والأخيرة على ما يمكن حشده من قوات.

ـ كما يظهر فى هذه المعركة أيضا ضروريات العمل التكتيكى للوصول إلى الهدف الإستراتيجى وهو ما يظهر جليا من خلال التناقض الذى ظهر فى تصرفات الجيش المشرك وحيث يقف المحلل العسكرى أمام هذه التصرفات بالحيرة خصوصا إذا تساءلنا عن الهدف الرئيسى أو الإستراتيجى لهذا الجيش خلال تلك المعركة؟ إن الإجابة المنطقية تنحصر فى مهاجمة الجيش المسلم المدافع والاستيلاء على المدينة التى يوجد بها قبائل غير مسلمة سوف تساعدهم أثناء الدخول للمدينة. ولكن الواقع الذى تم يقول إن ما قام به الجيش المشرك كان أقرب إلى الحصار منه إلى التعرض والهجوم.

ـ وكما هو معلوم فإن الاشتباكات التى تمت بالسلاح فى هذه المعركة كانت محدودة للغاية وعاجزة عن تحقيق أى أهداف ولو مرحليه لأى من الطرفين حتى أذن الله سبحانه وتعالى بانسحاب الجيش المشرك إلى مكة؛ مصداقا لقول الله تعالى: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾ (١) وخلال فترة الحصار التى تعرض لها الجيش المسلم والتى اتسمت بالاشتباكات المسلحة القليلة فإن الاشتباكات النفسية وصلت إلى الذروة، والمقصود هنا بالاشتباكات النفسية ما عرف فى عصرنا الحاضر بالحرب الباردة. وعلى الرغم من أن الجيش المشرك كان يملك إمكانيات هائلة لممارسة مثل تلك الحرب، ومنها ـ على سبيل المثال ـ لا الحصر وجود قبائل غير مسلمة داخل المجتمع المسلم فى المدينة إلا أن الجيش المسلم تحت قيادة المصطفى ﷺ استطاع إبطال مفعول تلك الحرب واستطاع أن يزعزع استقرار الجيش المشرك وأن يبث اليأس والضعف فى نفوس مقاتليه. ويمكن أن نقف هنا ـ كمثال ـ أمام حادثة نعيم بن مسعود الذى جاء إلى الرسول ﷺ لإشهار إسلامه فطلب منه الرسول أن يكتم إسلامه ورده على المشركين للوقيعة بينهم موضحا له أن الحرب خدعة. وقد قام نعيم بن مسعود بتنفيذ ما طلبه الرسول ﷺ على خير وجه فقد ذهب إلى بنى قريظة أولا ثم إلى قريش ثانيا ثم إلى غطفان ثالثا ونجح فى الوقيعة بينهم. الأمر الذى ساعد على زرع اليأس والقنوط فى صفوف الأعداء ثم الرحيل بعد ذلك.

د ـ معركة فتح مكة

(١) معركة فتح مكة من المعارك التى كرمها المولى عز وجل وشرفها بسورة كاملة تحمل اسم (سورة الفتح). وهذه المعركة العظيمة أثبتت بما لا يدع مجالا للشك أن المجتمع الإسلامى الوليد فى المدينة المنوره قد شب ونما وأصبح فى ريعان شبابه وقوته،

---

(١) الأحزاب: ٢٥.

وأن معارك الدرع الدفاعية قد ولت إلى غير رجعة وأن معارك السيف الهجومية هى عقيدته لحماية إجراءات عرض الدعوة الخالدة إلى قيام الساعة.

(٢) وفى هذه المعركة يظهر تماما مدى استفاده الجيش المسلم من الدروس والتجارب التى مر بها خلال المعارك السابقة، فالكثير من المهارات الهجومية تم التدريب عليها واكتسابها خلال معركة مؤته والتى تعتبر ـ كما سبق الإيضاح من وجهه نظر الإستراتيجية التى وضعها الرسول القائد ﷺ معركة إعداد وتدريب لمرحلة العمليات التعرضية داخل شبه الجزيرة العربية. كما أن أساليب الخداع والحرب النفسية تم اكتسابها من خلال معركة الأحزاب. . . .وهكذا. وكل هذه الأسباب التى تعلمها الجيش المسلم ليعمل بها مستقبلا اجتمعت تحت إرادة المولى عز وجل الذى يقول فى محكم تنزيله ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾﴾[1].

(٣) وفى هذه المعركة أيضا لم تحدث اشتباكات مسلحة إلا بقدر محدود وحتى الاشتباك الوحيد الذى حدث على محور خالد بن الوليد بصورة فعالة أوقفه المصطفى ﷺ. بل وأيضا قام بتغيير قياده كتيبة الأنصار حينما استشعر من أحاديث سعد بن عبادة شهوة الانتقام من أهل مكة، وفى ذلك يقول المولى عز وجل: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾﴾[2].

(٤) وكان من الأسباب الدنيوية التى ساعدت على تحقيق إرادة المولى عز وجل هو دخول مكة من خلال أكثر من محور، وفى توقيت واحد، الأمر الذى ساعد على حسم المعركة وبسرعة غير متوقعة جعلت الطرف الآخر أمام خيار وحيد وهو الاستسلام، وكان الله عز وجل قد أراد ذلك حتى تكتمل الصورة بعفو الرسول ﷺ عن أهل مكة الذين تعاملوا معه ومع المؤمنين لمدة ثلاثة عشر عاما من البعثة بغلظة وقسوة وخططوا لقتله. إن استخصار مشهد العفو واسترجاع كلمات المصطفى ﷺ (اذهبوا فأنتم الطلقاء). إنما هو مشهد يؤكد حقيقة العلاقة بين دعاة الإسلام والأداة العسكرية، فالأداة العسكرية الإسلامية ومهما كان حجم تفوقها ومهما كان حجم النصر المبين الذى من الله عليها به. هى أداة رحمه وعفو عند المقدره. هى أداه قائدها الأعلى ومثلها الوضاء جاء

---

(١) الفتح: ٢٠ ـ ٢٢.

(٢) الفتح: ٢٤.

إلى الدنيا لكى يكون رحمة لكل البشر مصداقا لقول المولى عز وجل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ (١).

(٥) وفى هذه المعركة أيضا تظهر أهمية تحقيق مبادئ الحرب وأسلوب الاستفادة من تحقيقها إلى أقصى درجة بكافة الطرق والسبل المبتكرة فعلى سبيل المثال فإن الجيش المسلم فى هذه المعركة استطاع أن يحقق مبدأ المفاجأة تماما، وكان لاكتشاف الرسالة التى بعث بها حاطب بن أبى بلتعة إلى بعض أقاربه فى مكة واستعادة هذه الرسالة دور كبير فى المحافظة على إمكانية تحقيق هذا المبدأ. كما كان لاستعراض القوة الذى أمر به الرسول ﷺ واحتجازه لزعماء مكة أثر كبير فى إنزال الهزيمة النفسية الكاملة لقيادات الجيش المشرك وبالتالى المحافظة على سريه تقدم الجيش المسلم نحو مكة الذى فوجئ أهلها بدخول المسلمين على جميع محاورها، الأمر الذى أدى فى النهاية إلى تحقيق النصر المبين.

(٦) النتائج التى ترتبت على هذه المعركة

- تعتبر هذه المعركة نقطة تحول عظيمة فى التاريخ العسكرى للمجتمع الإسلامى فالدعوة الإسلامية استمرت ثلاثة عشر عاما تتم بطريقة سرية وسط مجتمع يتميز بالقسوة والغلظة والجمود والرفض للمنطق ونداء العقل ثم بعد هجرة المصطفى ﷺ واصحابه إلى المدينة المنوره كانت الدعوة موجهه بغرض توطيد أركان المجتمع الجديد وتثبيت دعائمه. ولم يكن الدخول إلى الإسلام بالمعدل الذى يتفق وإعجاز كتابه أو اتساق تعاليمه مع الفطرة وخصوصا أن وسائل الإعلام والإعلان والتبليغ فى هذا العصر كانت محصورة فى الاتصال الشخصى أو استخدام الرسل للتبليغ، وكان الأمر يستدعى عند استخدام هذه الوسائل ان يكون هناك قوة مسلحة لحماية القائمين على عرض الدعوة. وبهذه المعركة العظيمة وهذا الفتح المبين زادت وتضاعفت مساحة الدولة الإسلامية وأصبح لهذه الدولة نواة قوة عظمى سوف تتفوق بعد قليل على جيوش القوى العظمى فى ذلك العهد ممثلة فى الإمبراطورية الفارسية والإمبراطورية الرومانية.

- ووصف الجيش المسلم بنواة قوة عظمى بعد هذه المعركة وصف ينتقص الكثير من الحقيقة؛ لأن معركة فتح مكة وعلى الرغم من كونها أولى المعارك الهجومية التى نفذها الجيش المسلم إلا أن الصورة التى تمت بها هذه المعركة تكاد أن تكون صورة تطبيقية نموذجية للمعركة الهجومية التى تتم لغرض الاستيلاء على مدينة سكانية. معنى ذلك أن القدرة الاستيعابية والتطوير للجيش المسلم خلال تلك الفتره كانت عالية جدا، والاستفادة من دروس المعارك السابقة كانت استفادة عظيمة، فمعركة فتح مكة من وجهة

(١) الأنبياء: ١٠٧.

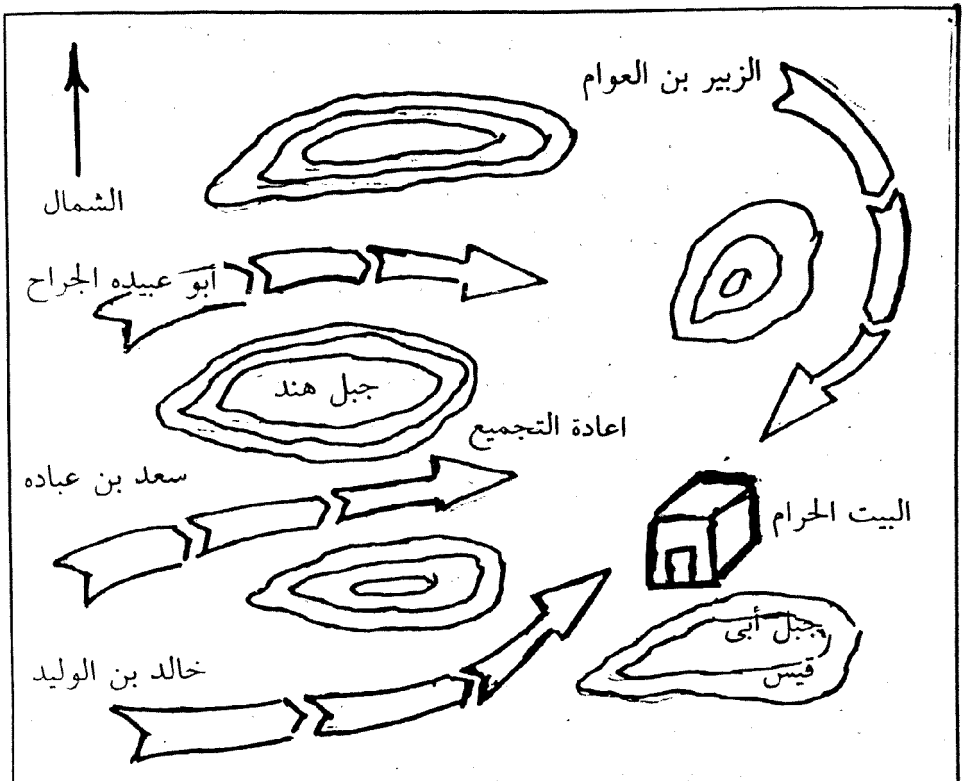

معركة فتح مكة

النظر العسكرية المتخصصة معركة صعبة للغاية، والمراحل التى مرت بها متعددة المهارات الميدانية، وأسلوب الدخول إلى مكة لسيطرة قوية وفعالة. كل هذه المتطلبات وبالصورة التى تمت بها تجزم بأن الجيش الذى نفذها هو جيش متمرس على العمليات الهجومية.

- وترتب أيضا على هذه المعركة تعديل جوهرى فى أوضاع أعداء الإسلام داخل شبه الجزيرة العربية، فقد ترك جزء كبير منهم مكة واتجهوا جنوبا وجنوب شرق على الرغم من أن قادة وزعماء قريش قد أسلموا قبل وبعد معركة فتح مكة. وقد حاول هؤلاء الأعداء التمسك بأمل ضعيف فى وجود بعض المنافقين فى صفوف المجتمع الإسلامى، وهو الأمر الذى استدعى وقوع معركة أخرى لاستكمال سيطرة الجيش المسلم على شبه الجزيرة العربية.

هـ - معركة وادى حنين

(١) يلاحظ خلال معركة وادى حنين وهى آخر المعارك الهجومية فى المرحلة الثانية من الإستراتيجية العسكرية التى وضعها المصطفى ﷺ مجموعة من الملاحظات الهامة أبرزها الآتى بعد.

- إن هذه المعركة هى المعركة الأولى التى يخوضها الجيش المسلم وهو متفوق عدديا على الجانب المشرك. ومن عجب أن هذا التفوق قد أصاب النفوس بالغرور واعتقد البعض أن النصر آت لاريب فيه، وفى ذلك يقول المولى عز وجل: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾(١).

- وتعتبر معركة وادى حنين من المعارك الصعبة والتى يمكن وضعها فى مصاف المعارك الحديثة فى عصرنا الحاضر؛ نظرا لتعدد المواقف القتالية والصعوبات التى ظهرت خلال مراحل إدارة المعركة. وهى فى ذلك تختلف عن معركة فتح مكة فى وجود الاشتباك الفعلى المسلح، إضافة إلى مجموعة أخرى من الصعوبات لعل أبرزها على الإطلاق ما تم فى المرحلة الأولى من المعركة والتى نجح خلالها الجيش المشرك فى نصب كمين ناجح داخل وادى حنين لمقدمة الجيش المسلم بقيادة خالد بن الوليد. وقد تمكن هذا الكمين من تحقيق المفاجأة وإجبار مقدمة الجيش المسلم على الارتداد للخلف، ولولا السيطرة الجيدة والفعالة التى كان يتمتع بها الجيش المسلم تحت قياده الرسول القائد (صلى الله وعليه وسلم) ما أمكن استعادة الجيش لتوازنه وتجميع قواته المرتدة وإعادة تنظيمها ومواصله المعركة وتحقيق النجاح خلال باقى مراحلها.

(٢) ومن الملفت للنظر فى هذه المعركة أن أعمال القتال وليس التحرك أو التقدم كانت تتم على مواجهات واسعة وأعماق كبيرة مع تغيير حاد فى الاتجاهات بغرض استمرار الضغط على القوات المعادية، والمحافظة على اتجاه العمل الرئيسى للقوات. ويلاحظ هنا أن هذه المعركة قد نفذت بأساليب قتال ومهارات ميدانية تتفق وطبيعة وأساليب القتال المطلوبة للمرحلة القادمه من عمل الجيش المسلم، وهى مرحلة الانطلاق خارج شبه الجزيرة العربية؛ لعرض الدعوه المحمدية الخاتمة وحماية القائمين على عرضها.

(٣) النتائج التى ترتبت على هذه المعركة

- اتساع رقعة المجتمع الإسلامى حيث اصبحت شبه الجزيرة العربية كلها (بالحدود المعروفة لنا الآن تقريبا) تحت لواء الدين الإسلامى وبدأ محمد بن عبد الله ﷺ يؤتى ثماره بعدما أدى الأمانه وبلغ الرسالة ونصح الأمة وجاهد فى سبيل ربه حق جهاده.

- بهذه المعركة انتهت المرحلة الثانية من مراحل الإستراتيجية العسكرية التى وضعها الرسول القائد ﷺ وهى المرحلة المخصصة للأعمال التعرضية داخل شبه الجزيرة العربية، وبدأ الجيش المسلم بعد هذه المرحلة فى الاستعداد للمرحلة الثالثة المخصصة

---

(١) التوبة: ٢٥.

للأعمال التعرضية خارج شبه الجزيرة العربية وذلك من خلال فترة تدريبية أخرى يتم خلالها التركيز على كل ما تتطلبه هذه المرحلة

ـ اكتساب الجيش المسلم لمجموعة من المهارات القتالية التى من الصعب اكتسابها خلال معركة واحدة. منها على سبيل المثال سرعة استعادة السيطرة فى المواقف الحرجة. وتنفيذ أعمال المناورة فى التوقيت والزمان المناسب، والمحافظة على الاتجاه الرئيسى للقوات، والتعاون والتنسيق بين القوات. . . .إلخ. وهى من المهارات التى يتطلب اكتسابها العديد من المعارك.

ـ صقل العقيدة الدينية لدى الجيش المسلم حيث أصبح اليقين التام بأن النصر من عند الله؛ مصداقا لقول المولى عز وجل: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾﴾[1]. فالتفوق الكبير فى القوات لم يكن السند الرئيسى فى تحقيق النصر فى هذه المعركة، وكم من معركة خاضها الجيش المسلم وهو الطرف الأقل عددا وعدة وكان النصر له بدعم ومسانده السماء، تلك المسانده التى لا يغنى عنها شىء سواء كانت القوات متفوقة أو غير متفوقة.

ـ ومع انتهاء هذه المعركة أصبح لدى الجيش المسلم مجموعة من القادة على مستوى عال من الكفاءه أمثال خالد بن الوليد. وأبو عبيدة بن الجراح وعمرو بن العاص. . . . . .إلخ. وقد ساعدت هذه القاعدة العريضة من القادة الأكفاء على انطلاق الجيش المسلم خلال المرحلة الثالثة خارج شبه الجزيرة العربية، وفى أكثر من اتجاه، بل والأكثر من ذلك إن الجيش الذى كان يعمل فى اتجاه محدد تحت قيادة قائد معين كان لهذا القائد أكثر من بديل كفء.

---

(١) الفتح: ٧.

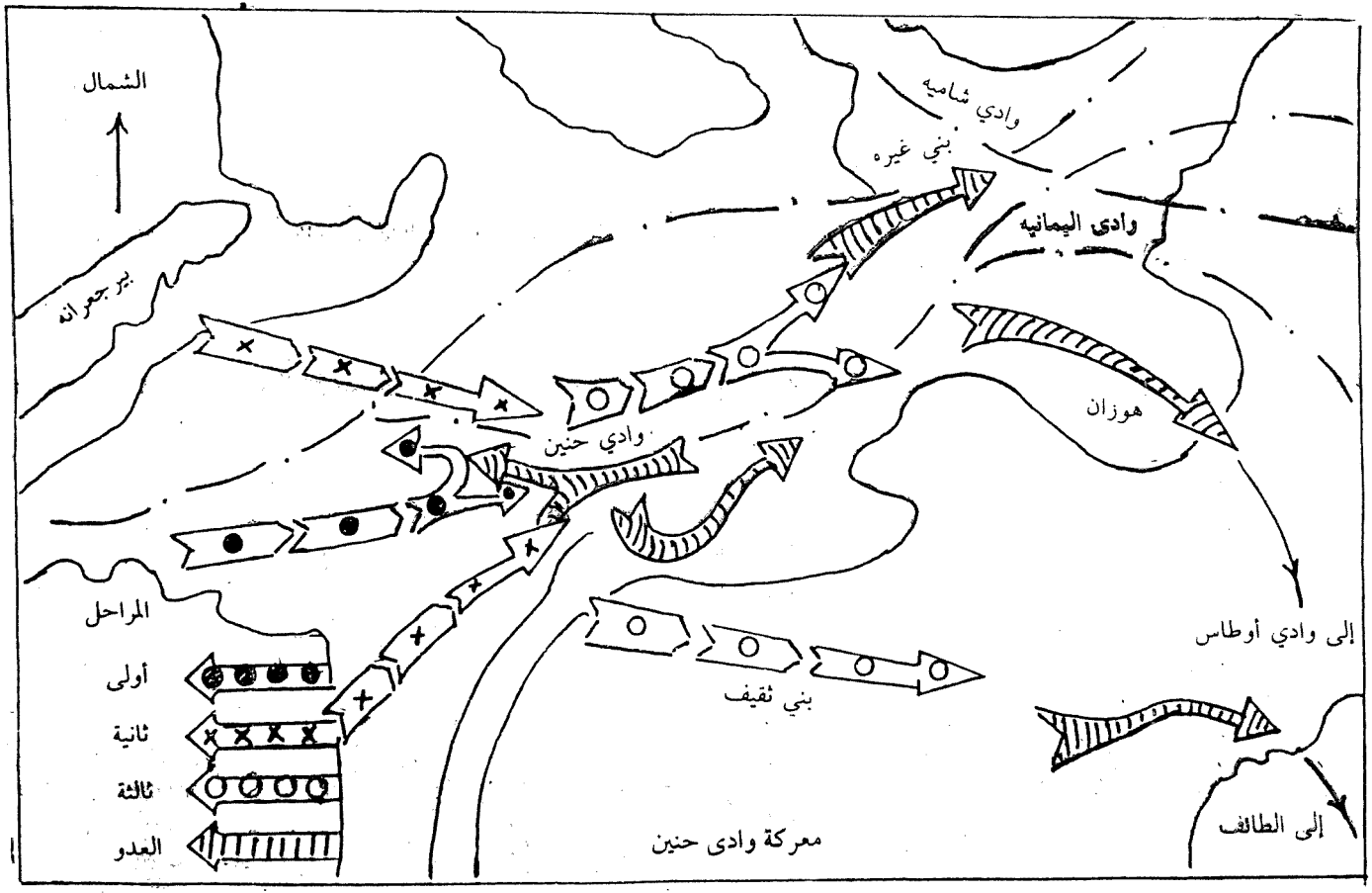
الشمال
بير جعوانه
وادي شامية
بني غيره
وادى اليمانيه
هوزان
وادي حنين
المراحل
أولى
ثانية
ثالثة
العدو
بني ثقيف
إلى وادي أوطاس
إلى الطائف
معركة وادى حنين

و ـ معركة تبوك

(١) تعتبر هذه المعركة معركة الإعداد والتدريب الثانية للجيش المسلم بين المرحلة الثانية من الإستراتيجية العسكرية التى عمل فى ضوئها الجيش المسلم، وكانت تشمل الأعمال التعرضية والهجومية داخل شبه الجزيرة العربية والمرحلة الثالثة التى تشمل الأعمال المتعرضية والهجومية خارج شبه الجزيرة العربية.

(٢) وهذه المعركة هى آخر معارك المصطفى ﷺ ومع انتهاء هذه المعركة يكون الرسول القائد قد نجح ـ بتوفيق المولى سبحانه وتعالى ـ فى إنشاء دولة إسلامية على رقعه من الأرض تبلغ نحو مليون ميل مربع وتوك لهذه الدولة قوات مسلحة على أعلى مستوى عسكرى من حيث الكفاءه القتالية وكل من الدولة أو المجتمع الإسلامى والقوات المسلحة يعلم دوره تماما ومسئوليته فى نشر الدعوة المحمدية الخالدة. ومع انتهاء هذه المعركة كان الجيش المسلم قد أصبح مستعدا تماما لتنفيذ المرحلة الثالثة، أى الأعمال التعرضية خارج شبه الجزيرة العربية.

(٣) وفى هذه المعركة لم يحدث اشتباك مسلح مع العدو الرومانى الذى انسحب من أماكنه خوفا ورعبا، ورغم ذلك فإن هذه المعركة قد حققت أهدافها كاملة من حيث تدريب وإعداد الجيش المسلم على التحرك لمسافات طويلة والسيطرة على القوات تحت ظروف طبيعية سيئة[١] إضافة إلى إجراءات الاستنفار والإعداد والتجهيز.

(٤) ولأن الجيش المسلم قد تحمل الأمانه من عهد النبوة الخاتمة من خلال هذه المعركة فإن موضوع الاستنفار وإعداد القوات قد اصبح من الموضوعات الرئيسية الهامة اللازمة تماما للمجتمع، لذلك فإن من تخلفوا عن هذه المعركة عاقبهم الرسول ﷺ. والمسلمون حتى نزل فيهم قول المولى عز وجل: ﴿**وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾**﴾[٢]. ولعل هذا الحدث وتلك القصة كانت درسا ربانيا لإبراز المعانى الهامة التى يجب الاهتمام بها، والدورس البارزة التى يجب أن توجه إليها الأنظار فى المستقبل، وخصوصا أن الجيش المسلم سوف ينطلق بعد ذلك شمالا وجنوبا وشرقا وغربا حاملا لواء الدعوة الخاتمة، وذلك أمر يستتبع وجود قاعده ضخمة من الجند لا تتوافر إلا من خلال استنفار قتالى صحيح وسليم وقناعة وعقيدة قتالية راسخة فى القلوب والعقول.

---

(١) سميت هذه المعركة العسرة نظرًا للظروف الجوية الصعبة التى تمت فيها.

(٢) التوبة: ١١٨.

(٥) النتائج التى ترتبت على هذه المعركة

- مع هذه المعركة الصعبة أصبح الاستنفار القتالى وتلبية نداء الحق أقرب فروض الكفاية إلى فروض العين بل ويمكن القول أنه فى حالات الضعف والتفكك وفى حالات التعرض للعدوان والاحتلال فإن الاستنفار القتالى يصبح فرض عين[١].

- إن الجيش المسلم بعد هذه المعركة قد أصبح جاهزا لتنفيذ المرحلة الثالثة من الإستراتيجية العسكرية التى يعمل فى ضوئها؛ ونظرا لأن هذه المرحلة مفتوحة إلى قيام الساعة، لذا فإن المسئولية تنتقل من العصر النبوى إلى المجتمع الإسلامى الذى أصبح بعد هذه المعركة حاملا للواء الدعوه الخاتمة عاملا على إيصالها إلى جميع أنحاء المعمورة.

- وقد أبرزت هذه المعركة نتيجة أخرى غاية فى الأهمية. فالمعركة - كما سبق - لم يتم فيها اشتباك مسلح حيث انسحب الطرف الرومانى خوفا ورعبا رغم أنه الطرف المتفوق عدديا فى القوات والتسليح، وليس هناك تعليل مقبول لذلك سوى أن السيطرة على تحركات الجيش المسلم وأساليب انتشاره وكفاءته العالية فى تنفيذ مهارات القتال كل ذلك كان وراء الرعب والخوف الذى اصاب الجيش الرومانى فى مقتل فجعل الانسحاب والفرار هو طريقهم الأوحد فى التصرف.

- ومن نتائج هذه المعركة الهامة أن الطاقات الإنسانية التى أحسن إعدادها ماديا ومعنويا وعقائديا تستطيع أن تتغلب على الكثير من الصعاب مثل قسوة المناخ والطقس وطول المسافات المحددة للتحرك ومشاكل الإعاشة والإيواء والمحافظة على الكفاءة القتالية والاستعداد لمنازلة العدو فى أى وقت من الأوقات.

- إن أمانة الدعوة الإسلامية بعد هذه المعركة لم تنتقل إلى الجيش المسلم فقط، وإنما إلى المجتمع المسلم ككل كما سبق الإيضاح وإذا كان الجيش المسلم هو أداه القوة التى تظهر أهميتها، فى بعض الأحيان أو أغلبها فإن الأدوات الأخرى لابد أن يتم إعدادها بصورة جيدة والاهتمام بها، فالقتال جزء من كل اكبر وأشمل، وهو الجهاد فى سبيل الله.

---

(١) فى حرب عام ١٩٤٨ كان تعداد الهود فى فلسطين نحو نصف مليون نسمة تقريبا وحشدوا للحرب نحو ٨١ ألف مقاتل، بينما كان تعداد العرب نحو ٤٠ مليون نسمة وحشدوا للحرب ٣٧ الف مقاتل.

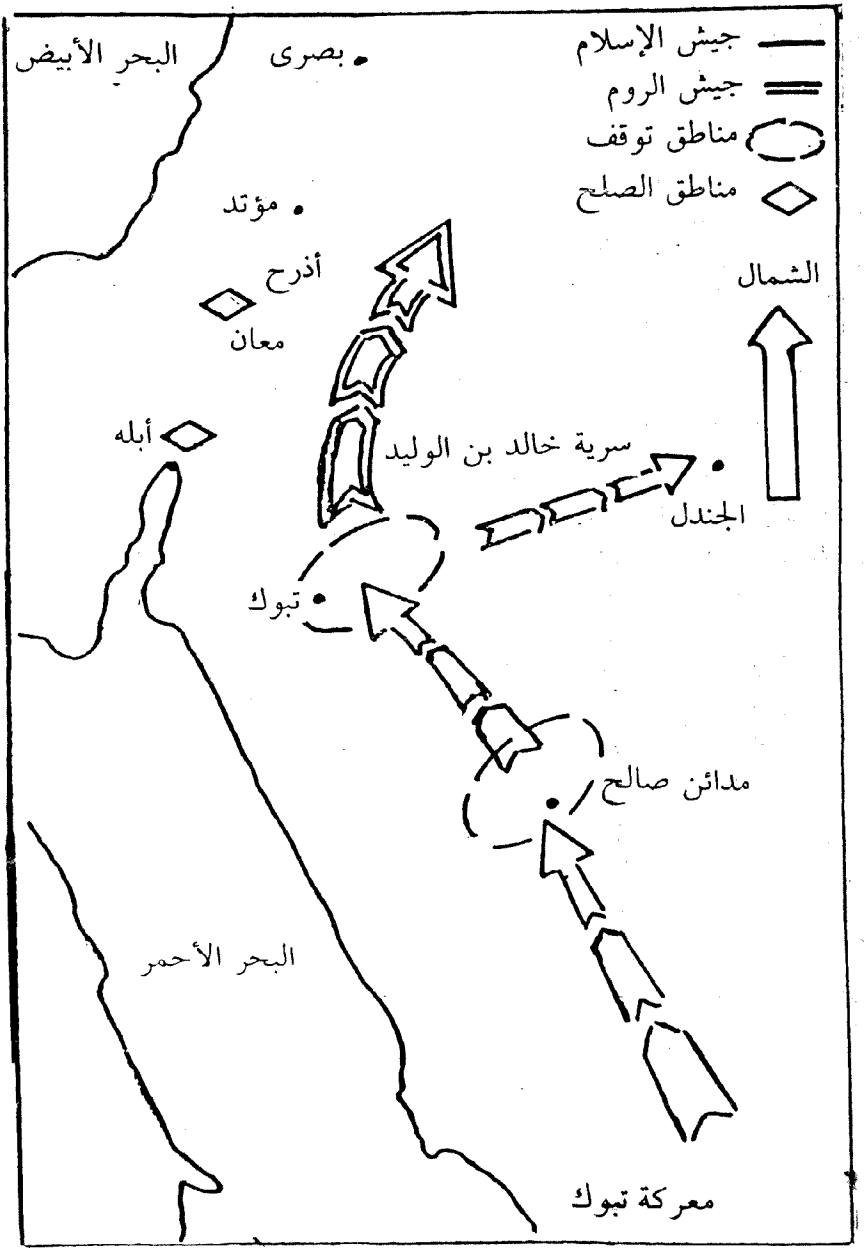
جيش الإسلام
جيش الروم
مناطق توقف
مناطق الصلح
البحر الأبيض
بصرى
مؤتد
أذرح
معان
الشمال
أيله
سرية خالد بن الوليد
الجندل
تبوك
مدائن صالح
البحر الأحمر
معركة تبوك

المبحث الثانى

القرآن الكريم يؤرخ لأعمال الأمن الداخلى

أولا: عام

١ ـ يعرف الأمن الداخلى بأنه جميع الأنشطة والإجراءات التى تهدف إلى المحافظة على أمن وسلامة المجتمع أو الجبهة الداخلية ضد جميع الأخطار ـ التى يمكن أن يكون لها تأثير سلبى على هذا المجتمع. ومما لاشك فيه أن هناك علاقة طردية بين حالة المجتمع أو الجبهة الداخلية وبين القوة المسلحة أو الأداة العسكرية التى تخرج للدفاع من هذا المجتمع والتى يطلق عليها الجبهة الخارجية فإذا كان المجتمع متماسكا وسليما انعكس ذلك على قواته المسلحة بالإيجابية المطلوبة لتحقيق أهداف القوة المسلحة.

٢ ـ والمجتمع فى أى دولة يتعرض لنوعين من الأخطار ـ يمكن استعراضها من خلال الآتى:

أ ـ الأخطار الداخلية وهى اخطار تتمثل فى صراعات طائفية أو دينية أو مظاهرات غوغائية أو اضطرابات . . .إلخ.

ب ـ الأخطار الخارجية وهى أخطار تتمثل فى غضب الطبيعة، وذلك عندما يتعرض المجتمع لزلازل وثورة البراكين أو العواصف والفيضانات . . إلخ.

٣ ـ وفى جميع الأحوال فإن مسئولية التعامل مع الأخطار التى تهدد أمن وسلامة المجتمع تكون بالدرجة الأولى مسئولية أجهزة الشرطة وأجهزة الدفاع المدنى . وعندما تكون الأخطار التى تهدد المجتمع فوق طاقة أجهزة الشرطة وأجهزة الدفاع المدنى فغالبا ما يتم الاستعانة هنا بالقوات المسلحة التى تكون إمكانياتها أكبر وأكثر من باقى أجهزة المجتمع أو الدولة.

ثانيا ـ وضع أنشطة الأمن الداخلى فى العهد النبوى الشريف:

١ ـ عندما وصل الرسول ﷺ إلى المدينة المنورة مهاجرا إليها من أم القرى شرع فى بناء المجتمع الإسلامى الجديد، وكانت جميع الخطوات التى اتخذها الرسول الكريم تهدف ـ فى المقام الأول ـ إلى تحقيق التماسك والانسجام والترابط بين العناصر التى تكون المجتمع الجديد، ويمكن أن نستعرض هذه الخطوات فى الآتى بعد.

أ ـ بناء المسجد على أساس أنه مصدر القيم والمبادئ الإسلامية التى سوف يلتف حولها جميع أبناء المجتمع الإسلامى فى المدينة المنورة.

ب ـ الصلح بين قبائل الأنصار فى المدينة المنورة وخصوصا قبائل الأوس والخزرج، وعلى أساس أن الرباط الإسلامى أقوى من أى رباط قبلى أو عرقى أو .. إلخ.

حـ ـ الإخاء بين المهاجرين والأنصار بهدف قيام أهل المدينة بمعاونة المهاجرين على تخطى الظروف الصعبة التى كانوا يمرون بها. وهذه المعاونة التى قام بها أهل المدينة على خير وجه كان لها الدور الأول فى زرع الحب بين المسلمين وتنمية مشاعر الود والعطف والتراحم بينهم.

د ـ توقيع معاهدة مع زعماء القبائل اليهودية الموجودة فى المدينة مثل بنى قريظة وبنى قينقاع .... إلخ. بهدف تنظيم معيشة تلك القبائل مع المجتمع المسلم داخل المدينة، وتوضيح الحقوق والواجبات التى يجب أن يلتزم بها كل طرف من الأطراف.

٢ ـ ومع الخطوات التى كان يقوم بها الرسول ﷺ لخلق الترابط والتماسك داخل المجتمع الوليد. كان يقوم فى نفس الوقت ببناء المتطلبات الأخرى. لنمو المجتمع مثل الأداة العسكرية على سبيل المثال، ويلاحظ هنا أن الأداة العسكرية قد أسند إليها دور أجهزة الشرطة فى الحفاظ على الأمن الداخلى للمجتمع؛ لأن المجتمع الإسلامى فى تلك الفترة لم يكن فى حاجة ماسة لأجهزة شرطة، وذلك لأن المجتمع الوليد كانت تغلب عليه المثاليات فى التعامل والتنافس فى عمل الخير، إضافة إلى ذلك فإن الرسول القائد ﷺ كان يعمل فى إطار أسس وقواعد يراعى فيها الأسبقيات والضروريات.

٣ ـ من الاستعراض السابق يتضح أن المجتمع الإسلامى الجديد فى المدينة المنورة كان يتصف بالتماسك والترابط، وأن النقطة السلبية الوحيدة داخل هذا المجتمع تتمثل فى وجود أقلية يهودية يتضائل حجمها يوما بعد يوم مع انشراح صدور أهل المدينة للإسلام. كما أن الأداة العسكرية التى كانت الظروف المحيطة بالمجتمع الوليد تستدعى وضع أسبقية أولى لها. كلفت بمهام التأمين سواء مهام التأمين الخارجى أو مهام التأمين الداخلى، ومن هنا كان التناول القرآنى للأنشطة العسكرية المتمثلة فى المعارك القتالية وأعمال وإجراءات الأمن الداخلى.

ثالثا ـ القرآن الكريم يؤرخ لإجراءات الأمن الداخلى:

١ ـ لم تكن المواقف التى استدعت تدخل الأداة العسكرية الإسلامية لتنفيذ عمليات الأمن الداخلى كثيرة، ولكن أبرز هذه المواقف ماحدث خلال معركة الأحزاب عندما اشتد حصار المشركين حول المدينة وبدأت المعلومات تأتى إلى رسول الله ﷺ عن نقض بنى قريظة لعهدهم معه بعد أن نجح حيى بن أخطب فى إقناع كعب بن أسد سيد

بنى قريظة بوجهة نظره فى ضرورة انضمامهم إلى المشركين فى قتالهم الذى أعلنوه وجعلوا هدفه ومقصده محمدا ومن معه من المسلمين.

٢ ـ بهذا الموقف الذى اتخذه كعب بن أسد سيد بنى قريظة فإن المجتمع المسلم فى المدينة تكون قد طرأ عليه تغييرات هامة أبرزها.

أ ـ أن هناك جزءا من نسيج المجتمع المسلم وهم يهود المدينة، قد أعلنوا العداء للمسلمين ووقفوا إلى جانب أعدائهم (كفار مكة).

ب ـ أن تحالف كعب بن أسد مع حيى بن أخطب قد أسقط العهد بينه وبين رسول الله ﷺ والذى ينظم علاقة غير المسلم فى المجتمع الإسلامى.

حـ ـ أن اليهود خلال فترة الحصار قد أصبحوا أمام خيارين أولهما يتمنونه، وثانيهما لايتمنونه، ففيه الطرد والتشرد والقتل، وذلك فى حالة نجاح صمود المسلمين وانسحاب كفار مكة.

٣ ـ كان من المنطقى أن يتوجه الجيش المسلم بعد انتهاء حصار المشركين للمدينة إلى أماكن قبيلة بنى قريظة، وذلك لكى يزيل الورم الذى يهدد النسيج المترابط والمجتمع المتماسك وهو ماحدث بالفعل، وخصوصا أن ماحدث خلال معركة الأحزاب قد أكد معلومات سابقة تدور حول قيام زعماء اليهود بتأليب القبائل العربية ضد الإسلام بهدف جمعهم فى جيش واحد يستطيع أن يدخل مع جيش محمد فى معركة حاسمة وفاصلة، فقام نفر منهم بالاتصال مع قريش لهذا الغرض، ونفر آخر قام بالاتصال مع أعراب غطفان، وثالث ورابع للاتصال مع القبائل الأخرى الرافضة للدين الجديد. أن الموقف المتخذ من قبل اليهود خلال المعركة وضح الدور القذر الذى لعبوه فى إشعال فتيل المعركة.

٤ ـ قام الجيش المسلم بالتحرك إلى أماكن قبيلة بنى قريظة فور إنتهاء معركة الأحزاب فارضا حصارا عليهم؛ مصداقا لقول المولى عز وجل: ﴿ **وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا** ﴿٢٦﴾ ﴾[1]. وبعد استسلام بنو قريظة حكّم الرسول ﷺ سعد بن معاذ فى مصير يهود بنى قريظة فكان الحكم هو قتل الرجال وسبى النساء وإبعاد الأطفال والكبار، وقد علق المصطفى ﷺ على حكم سعد بن معاذ بأنه حكم السماء مصداقا لقول المولى عز وجل: ﴿ **هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ** ﴿٢﴾ ﴾[2].

(١) الأحزاب: ٢٦.

(٢) الحشر: ٢.

٥ ـ بعد فرض الحصار واستسلام بنى قريظة تظهر دور السيطرة هنا من قبل الرسول القائد ﷺ فى تنفيذ إجراءات الأمن الداخلى الصادرة من السماء على لسان سعد بن معاذ (رضى الله عنه) مصداقا لقول المولى عز وجل ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾ (١).

٦ ـ ثم يكشف القرآن الكريم طبيعة الفئات الرافضة للإسلام من داخل مجتمع المدينة لكى يطمئن الرسول ﷺ والمؤمنين على أنهم فئات لاعهد لهم وقلوبهم متفرقة وأنهم مثل الشيطان الذى دل الإنسان على الشر ثم تبرأ منه، مصداقًا لقول المولى عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾﴾ (١).

٧ ـ بعد معركة الأمن الداخلى التى تمت فى المدينة فى أعقاب معركة الأحزاب تخلص المجتمع المسلم من أغلب العناصر الحاقدة والكارهة للإسلام، وبالتالى لم تحدث مثل هذه المعارك حتى انتقال الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى والذى فى أعقاب وفاته تعرض المجتمع المسلم لأخطر مايمكن أن يتعرض له مجتمع، تمثل ذلك فيما عرف بحركة الردة والتى نجح الخليفة الأول أبو بكر الصديق فى القضاء عليها مستخدما الأداة التى أعدها وجهزها رسول الله ﷺ.

تم بحمد الله

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المراجع

١ ـ القرآن الكريم.
٢ ـ فقه السيرة الشيخ محمد الغزالى.
٣ ـ إعداد الجيش فى عهد الرسول ﷺ مـصطفى أحمد كمال، دار الفكر العربى.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفهرس

الموضوع	الصفحة من	الصفحة إلى
المقدمة	٥	٦
الفصل الأول		
ملامح التناول القرآنى	٧	٨
المبحث الأول المدخل إلى التنال القرآنى	٩	١٢
المبحث الثانى فلسفة استخدام القوة فى القرآن الكريم	١٣	٢٠
المبحث الثالث خصائص العسكرية الاسلامية فى القرآن الكريم	٢١	٢٦
المبحث الرابع قيم وأخلاق القتال	٢٧	٣٢
الفصل الثانى		
القرآن الكريم والعلم العسكرى	٣٣	٣٤
المبحث الأول مبادئ النشاط العسكرى فى القرآن الكريم	٣٥	٤٦
المبحث الثانى صور النشاط العسكرى فى القرآن الكريم	٤٧	٥٤
المبحث الثالث الشكل التطبيقى للمعركة فى القران الكريم	٥٥	٦٢
المبحث الرابع أسلوب تركيز جهود القوات	٦٣	٦٥
الفصل الثالث		
القرآن الكريم يؤرخ للأنشطة العسكرية	٦٦	٦٧
المبحث الأول القرآن الكريم يؤرخ لمعارك الإسلام الأولى	٦٩	٩٢
المبحث الثانى القرآن الكريم يؤرخ لأعمال الأمن الداخلى	٩٣	٩٦
المراجع	٩٧	٩٨
المحتويات	٩٩	

رقم الإيداع	١٩٩٧ / ٨١٢٨
I. S. B. N الترقيم الدولى	977 - 10 -1025 - 5

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

هذا الكتاب

القرآن الكريم ليس كتابا علميا وإنما هو كتاب هداية ورحمة من الخالق للمخلوق، هو آيات كريمة وشريفة تحدد الطريق السديد والصراط المستقيم الذى يجب أن يتبعه المخلوق فى حياته الدنيا بل وفى جميع شئون حياته. لذلك كان من الطبيعى أن يكون لهذه الآيات الكريمة منظور خاص فى جميع الأنشطة الإنسانية. ومن خلال المنظور القرآنى لأى نشاط إنسانى يمكن لنا أن نضع أيدينا على البديهيات العلمية التى يستند عليها هذا النشاط، وبالمزيد من التأمل والدراسة لهذا المنظور يمكن لنا أن نكون الرواد فى هذا العلم، وبالتالى فى جميع علوم الأنشطة الإنسانية ونستطيع أن نمتلك ناصية استعمار الأرض التى أمرنا القرآن الكريم بها.

وأحد الأنشطة الإنسانية التى تناولها القرآن الكريم هو النشاط العسكرى، وهذا التناول هو موضوع هذا الكتاب. ولا أزعم عزيزى القارئ أن هذا الكتاب قد غطى الموضوع بالكامل وإنما أدعو الله أن يكون هذا الكتاب مدخلا لهذا الموضوع، فالموضوع واسع وكبير ويحتاج إلى جهد العديد من الباحثين. وأكثر ما أحب أن ألفت إليه نظرك عزيزى القارئ من خلال تلك العجالة أن تلاحظ حجم المعانى المستخرجة من آيات كريمة ذات ألفاظ قليلة ثم نفس هذه الألفاظ القليلة ومن خلال ترتيبها المحدد فى الآيات الشريفة تعطى معانى أخرى حتى وصل الأمر إلى أن بضع كلمات أو ألفاظ تشكل آيات معدودة تغطى معانيها مجلدات عسكرية فى إطار إعجاز إلهى رائع. سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

المؤلف
أ. مصطفى أحمد كمال

* تخرج من الكلية الحربية عام ١٩٦٨.
* تخرج من كلية أركان الحرب عام ١٩٧٨.
* عمل مستشارًا عسكريا فى العديد من الدول العربية.
* له العديد من المقالات العسكرية والسياسية المنشورة فى وسائل الإعلام المصرية والعربية.
* صدر له الكتب الآتية:
  - العسكرية الإسلامية فى عهد الرسول ﷺ.
  - الحرب ـ المبادئ والأدوات.
  - الحرب غير التقليدية (الأسلحة الذرية والكيماوية والبيولوجية).
  - عاصفة الصحراء... دراسة عسكرية.
  - أفغانستان بين الجهاد الأكبر والجهاد الأصغر.
  - إعداد الجيش فى عهد الرسول ﷺ.
  - المدرسة العسكرية الإسلامية الأولى القادة والفرسان.
* تحت الطبع.
  - الإستراتيجية العسكرية فى عهد الرسول ﷺ.

تطلب جميع منشوراتنا من وكيلنا الوحيد بدولة الكويت دار الكتاب الحديث